

العالم الجديد

رواية اجتماعية غرامية فلسفية تاريخية

القسم الاول

مريم قبل التوبة

تأليف

فرح انطون

صاحب الجامعة

نيويورك - اول اكتوبر (تشرين اول) سنة ١٩٠٦

موضوع الرواية

وقعت حوادث هذه الرواية في مجدل وطبريا والناصرة وجنيساره واورشليم وغيرها قبل ظهور المسيح بعشر سنوات وتمتد حوادثها الى ما بعد ظهوره وصلبه . واهم اشخاصها (مريم المجدلية) المعروفة في الانجيل بمريم الخاطئة . وهي قسبان القسم الاول (مريم قبل التوبة) والقسم الثاني (مريم بعد التوبة) . وموضوع الرواية ذكر الاحكام الذي حدث بين مدينة الرومان واليونان في ذاك العهد بالمدينة اليهودية من جهة وبالمدينة المسيحية التي كانت آخذة في الظهور من جهة اخرى . وتصوير (العالم الجديد) الذي كان يطلبه كل منها وماذا بقي منه الى هذا العصر مما يصح ان يكون (العالم الجديد) الذي تنشده الانسانية الراقية ويتمناه الفلاسفة

وسيتظهر في هذه الرواية السيد المسيح وتلاميذه

في فصول عديدة

وبذلك يكون موضوع الرواية (العالم قبل صلب المسيح) كما ان روايتنا (اورشليم الجديدة) كانت (العالم بعد صلبه)



مقدمة الرواية

﴿ في التينة تحت النخلة ﴾

قالت الحمامة الوديعه « اني ارى

الفجر . وأشم في الهواء ريح العطر »

اجل هذا ما قالته يومئذ حمامة الخلاء لرفيقها في ليلة اشدد بردها وسوادها وهي مخبئة بين الاغصان قرب عشاها على شجرة من شجر النخيل قائمة وسط غابة بين بحيرة طبريا وقرية مجدل . كانها رقيب جعل في ذلك المكان الشاهق لرقابة الافق والانباء عما يحدث فيه فرفع رفيقها الزوج رأسه الذي كان مدفوناً بين جنحيه وانتفض لتنبيه دمه واعصابه لا لتفرض الغبار والهوام عن ريشه ثم قال وهو يسرح عينيه الذابلتين من النعاس في الافق امامه . انني لا ارى شيئاً ولا اشم شيئاً ايها الحبيبة

فاجابته : انك طول عمرك لا ترى شيئاً . وكأنه كتب لكم يا معشر الذكور ان تبقوا عمياناً وكتب لنا معشر الاناث ان نكون السابقات الى اكتشاف كل امر ذي علاقة بجمال الروح ولطفها . ولقد كان مثلك في هذا مثل زوج احدى نسيباتي التي بعث بها سيدنا نوح عليه السلام من فلكه لتعود اليه بشارة انقضاء الطوفان . فانها قبل ان عهد اليها نوح بهذه المهمة قالت لميرا زوجها وها في الفلك انها حلت بان سيدها وسيدنا نوحاً سيعهد اليها بمهمة تجعل اسمها خالداً على ممر الدهور . فضحك واجابها انها دخلت في طور الخرف . وانا اقول لك الآن يا فيرا : لا اعلم كنه الامر الذي أحس الآن به . ولكنني ارى الفجر . وأشم في الهواء ريح العطر

فاجاب شحور كان بائناً تحنها في تينة : لقد صدقت سيرا يا فيرا فاني ارى ما راأت واشم ما شمت . يا جارنا المدهد اسمعت مقالة الحمامة

فاجاب المدهد انني شيخ ضعيف البصر ولكنني قوي حاسة الشم . حقاً اني اشم هذه الرائحة الغريبة . ثم انظر انني اكلت الآن من هذه التينة فلم اهنأ زمامي بطعم طيب مطيب

كطعمها . فإذا جد في الارض وجوها حتى صار لها هذه المزية . هل جاءت الساعة المنتظرة التي يُرفع فيها عنا نير الوحوش الحيوانية والبشرية (ويعيش الذئب والحمل) معاً ولم ينقض نصف ساعة حتى انتشر الخبر بين جميع الطيور اللاجئة في الليل الى تلك الغابة . فاجتمعت الطيور المحلية والطيور الغريبة المارة بفلسطين في طريقها من هزار وكناري وبيغاء وعندليب وبلبل وغراب وممانى وزرزور وحجل وغيرها وعقدت جلسة في التينة تحت النخلة . وكان هذا يقول ما هذا الطعم العطري الذي لهذه الثمرة . وذلك يقول اني زرت بلاد العرب والهند في هذا العام فلم اجد لمسكها وعدوها ريحاً كهذا الريح . وغيره يقول ان الليل لا يزال دامساً والفجر بعيداً ومع ذلك نرى في الافق الشفق فيا للعجب . وغيره يقول الا تشعرون بان اجسامنا خفت عن ذي قبل والهواء لطيف ورق والنفس باتت منبسطة مرتاحة الى المباشرة في الارض

وكان جلبة الطيور في التينة نهبت في الغابة وخارج الغابة جميع الحيوانات التي كانت هناك فاتجهت جميعها نقصد التينة لترى سبب هذا الصباح . فزحفت الافعى تسعى . وجاء الثعلب يتجتر ويقول : يا واهب يا فتاح افتحها في وجهنا . وجاءت الضبع من ورائه من بعيد لان علماء الحيوان يقولون انه لقصر نظرهما وضعف شمهما تتبع الثعلب من بعيد وتلازمها لتتهدي بهديها الى الجيف والفرائس لما هو مشهور من دقة نظر الثعلب وقوة حاسة الشم عنده . ثم نظر سرب من الغربان يحيط في تلك الغابة . وفوقه باشق يحوم لسمع ويرى لعله بقدر على صيد هناك . وفوق الباشق سلطان الجو وملك الطيور النسر الهائل وهو باسط جناحيه وجامد في مكانه في الهواء كشخص جالس على السحاب لا يتحرك منه شيء غير عينيه ينظر بها مزدرباً تلك الحيوانات الحقيرة التي تجلب وتلب تحنه

ولما علمت هذه الحيوانات الضارية بسبب هياج الطيور ضحكت الافعى وبقه الثعلب حتى استلقى . وبينما هو يبقه سمع صوتاً وحشياً من رمانة بعيدة من التينة . وكان هذا الصوت صوت البوم . فسمعه الثعلب يقول . لقد صدقت يا طيور النهار الجميلة . ودليلاً على صدقك اليك هذا الفأر الذي التقطته الآن من طرف الغابة : فاني آكله واجد له طعاماً مسكياً . فقالت الافعى في نفسها ما احسن حظ البوم لقد وجد في هذه الجهات احد الفيران التي يسمونها مسكة . وقد سأل امامها لذكر هذا الفار . اما الطيور فانقبضت لذكر الفأر واظهرت الكراهة والاشمئزاز . فقال لها البوم وقد اتى الى الارض قطعة من الفأر الذي كان في فيه . تعالي وشميه . فرفعت الطيور اجنحتها ودفعت جسمها الى وراء كما تفعل حين

ابائنا امرأً تكلف به وصرفت وجهها عن البوم

فلما رأى الثعلب فعل البوم مال نحوه وتبعته الانفى . فالتفت اليها الثعلب وقال ضاحكاً . يا عجوزتي تفضلي وابقي بعيدة عني . فضحكت الانفى وقالت لا تخف ف نحن لا نفترس بعضنا بعضاً وما لي غرض في لحك القذر . فاجاب الثعلب . قولي حامض لا قذر كما قال لي شاعر خبيث يوناني في شأن عنقود عنب لم استطع الوصول اليه . ولما صار الثعلب عند الشجرة التي كان عليها البوم التفت الثعلب اليه وقال : انت يا اخانا البارد . يا شيطان الليل الشنيع وروحه الخبيثة ما لك ولهذه الطيور . لقد فهمت مرادك يا شقي من القائل اليها قطعة الفأر . انك تعلم ان حكمها بشأن العطر والفجر مبني أكثره على التصور والتخيل . فلم تجد ايها الروح المادية الخبيثة وسيلة لرفع هذا التصور دفعة واحدة الا بصدمه بدليل ليس للتصور سبيل اليه . فهي اذا جثتها بكل اعشاب الارض واثمارها نقول لك الآن انها كلها عطرية مسكية . ولكن لا يصل صورتها هذا الى حد وجدانها للفأر القذر رائحة طيبة . فانا اخوك الثعلب العاجز احمد طريقتك يا خبيث الليل في الجدل ولكني لا احمد غرضك . دع يا بارد هذه الطيور الوديدة اللطيفة في صورتها الجميلة . قل لها كما نقول وزيادة . ثبتها في اعتقادها بالفجر والعطر والطف والسلم والحب والرفق فاننا لا نصطاد منها اكثر مما يمكننا اصطياده الا حين رقادها بامان واستسلام تحت اخنجة هذه الكلمات الظرفية اللطيفة . واذا كان اليوم هو فجر العصر الذي (يعيش فيه الذئب والحمل معاً) كما قالت فوافرحاه . اننا نحن معشر الحيوانات القوية المفترسة يمكننا حينئذ ان نخنار بحسب قابليتنا من نريد اقتراسه منها لانه يعيش معنا على مقربة منا . ولذلك يجب ايها الجاهل ان نصيح معها : حقاً اني ارى فجراً . واشم عطراً

ولما أتى الثعلب على كلامه رفعت الانفى رأسها معجبة وقالت : لله در الثعلب . نعم نعم : اني ارى الفجر واشم ريح العطر . يا بوم الشر لا تقطع رزقنا . دع الخرفان في معائها الجميل . ثم التفت نحوه التينة حيث كانت الطيور تتباحث وتذاكر في موضوعها وقالت : يا اخوتنا سكان الهواء يا ادلتنا في مملكة النور والسماء لله دركم ودر نظركم الثاقب ورائكم الصائب . انظروا امامكم ألا ترون الفجر في الافق يزداد شروقاً والعطر عبوقاً

فالتفت حينئذ الحمامة سيرا نحو زوجها فيرا وقالت له : أسمعت مقال الانفى . الا تحجل من ان الحيوانات الدنيئة التي تزحف بذل وصغار على تراب الارض القذر قد ادركت ما لم تدركه انت يا ابن النور والسماء ورأت ما لم تر

ولكن الحمامة لم تفه بهذا اللام حتى علت صيحة الطيور تحتها في التينة وفرت جميعها في كل الجهات فرارها من صوت بندقية. تطلق عليها . وكان السبب ان النسر سلطان الهواء قد نزل من الجو نحو التينة اما طلباً للصيد في ذلك الصباح واما تلذذاً بمشهد فرار الطيور منه خوف بطشه . فلما رآه فيرا . وسيرا هلع قلباها واخناً في راس النخلة بين طلعا وفيرا بقول لزوجنه صباحك مبارك يا باردة اذا كانت محالب النسر هي فحرك وعطرك . اما النسر فلما بلغ التينة جثم على اعلى اغصانها وصار يسترح نظره الحاد في ما حوله . ثم حانت منه التفاتة فابصر رمانة على مسافة مائتي قدم وعليها لوب من الغربان تنظر اليه من بعيد . فعبس النسر وحدث فيها تحديقاً شديداً . فانبرى له مقدم الغربان وقال

— لا تعبس فانك لا تحيفنا . اولاً لانك يا ملك الجولا نأكل لحنا . وثانياً لاننا هنا خمسون وانت واحد . وثالثاً لان (الفجر) قد اشرق كما قالت الحمامة وهبت على العالم روح جديدة ستقضي على قوة امتيازك . اي نعم يا ملك الطيور قد زالت مملكتك . اي نعم يا صاحب القوة والسيادة المبينة على مزاياك الخصوصية قد زالت قوتك وامتيازك . لقد جاءت مملكة الصغار والخليلين والضعفاء بحجة المساواة والاخاء . فاصبح اصغر واطف وأحد منا مساوياً لك ومعدوداً في منزلتك . اترك يا ملك الطيور تشم هذا الريح الذي وجدته الحمامة في الهواء ؟ ان هذا الريح العطري اللطيف سيكون ديناميتاً يثل العروش وبثير الشعوب ويقلب الامم (عقباً على رأس لا رأساً على عقب) ويبني الكرة الارضية على مبادئ الصغار الجديدة

وما اتم مقدم الغربان كلامه حتى علت جلبة من جهة الارض تحت الشجرة . فالتفت الغربان فابصرت الثعلب يعدو مسرعاً والافعى تنساب الى وكر تخفي فيه والضبغ تعود القهقري . وكان سبب فرارها رؤيتها الاسد ملك الوحوش قادماً من بعيد يتجتر تجتر الجبابة الصناديد

ولما بلغ الاسد شجرة التين انثثت كبرياء النسر ونسي حديث الغربان . وقد بقي الملكان (ملك الجو وملك الغاب) برهة ساكنين ينظر احدهما الى الآخر بلا سلام وكلام . لانها لم يتعلما آداب الملوك من ملوك هذا الزمان . . وكانت الطيور في الاشجار البعيدة والوحوش في اطراف الغابة تنطاول وتشرب اعناقها لترى ماذا يقع في جهة التينة وكانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل بحسب هذا الزمان . وكان الجو صافياً كمرآة الغريبة كأن ملائكة السماء احسنت تنظيفه وتنقيته في ذلك الصباح . وكانت كواكب

السما تنظر الى الارض بلايين العيون المنيرة المنتشرة في قبة الفلك كأنها لتوقع في الارض امراً خطيراً . والنسيم يهب بارداً فيداعب اغصان الاشجار . والشفق يبدو في جهة المشرق كأنه انعكاس مصاييح تثار . استعداداً لركوب غزالة الصباح هودج النهار وبينما كان سكان الغابة في تلك الحالة يتمتعون بسناء ذلك الصباح البهي واذا بالحمامة سيرا في اعلى النخلة قد ابرزت راءها من مخبائها وقالت لزوجها بلسان متلجلج وقلب مخنلج : انظر انظر

وكان بجانب الغابة طريق تؤدي الى بحيرة طبريا على ما تقدم . فمد فيرا زوج سيرا بصره من اعلى النخلة نحو الطريق حيث اشارت سيرا فراءى على الطريق شبح انسان قادم . وكان الرجل يسير ويخيل للنظر اليه ان الطريق تثار امامه في مسيره بمجرد مروره . فقال فيرا : من هذا القادم منفرداً في هذا الظلام وراسه منكوس الى الارض وقدماه تنتقلان ببطء كأنه في نزهة لا في سفر . فقالت سيرا : يا فيرا الا ترى هذا النور . الا ترى ان ريح العطر قد اشتد عن ذي قبل

ولما اقترب الرجل القادم من النخلة رأت سيرا انه شاب في نحو العشرين نخيل الجسم طويل الهامة يمشي منخياً قليلاً الى امام ونظره في الارض كأنه يفكر في امر ويابحث نفسه . ويظهر ان جميع حيوانات الغابة قد انتهت الى هذا القادم الغريب وصارت تنظر في جهته . وقال البوم في نفسه لقد وجد ملكانا الاسد والنسر طعام يومين فما اشد حظه هذا المسافر . وكان الاسد قد اقعى عند مماعة صوت قديمي الشبح من بعيد والنسر فوقه هياً نفسه لمشاركته في فريسته : فلما مر الرجل القادم امام الغابة شخصت جميع الطيور والوحوش نحوه ثم نظرت الى الاسد لترى كيف تكون وثبته . وكانت الحمامة سيرا في اعلى النخلة ترتعد خوفاً على هذا القادم لانها علمت بطش الاسد من بطش النسر

وكانت تلك الدقيقة دقيقة يتوقف عليها مستقبل الارض والانسانية . وهي في تاريخ (حكمة الحيوانات) تعدل قرون الزمان كله . فيا فجراً شهدت انتصار الحمامة لشكاسل الاسد وشبعه انك كنت فجر دنيا جديدة

فمر الشاب بالغابة حزينا كئيباً دون ان يلتفت اليها او يعلم بالخطر الذي كان على حياته . وقد تتبعته حيوانات الغابة بابصارها الى بعيد وهي ساكنة خاشعة لهول تلك الدقيقة التي انقضت بسلامة . وكان على الطريق من الجهة المقابلة لطريق الشبح المذكور مكاربان قادمان وامامهما بغلان يحملان ظروف زيت . فلما مر بالشبح المذكور قال احدهما للآخر :

هذا يسوع النجار من الناصرة . ما جاء به الى هنا في ظلمة هذا الليل
 في احمامة النحلة بين مجدل وطبريا . يا سيرا الجميلة . انك كنت اول من بشر العالم
 في الارض بالفجر والعطر . ولو علمت بك الكنيسة المسيحية يا مخلوقتي العزيزة لرفعتك الى
 مرتبة قديسانها كما رفعت مريم المجدلية التي بشرت بالقيامة وكانت سبباً في هذه العقيدة .
 اننا سنقص يا حماتي قصة هذه المرأة في هذا الكتاب وهي ولئن كانت اجمل واحلى من
 قصتك الا انها ليست باطهر واصفى منها وان كان (الفجر والعطر) يطهران كل شيء .
 وسترين في ما يلي ان في البشر ثعالب وافاعي وغرباناً يقولون ما قاله ثعلبك وافعاك وغرابك
 على مقربة من التينة . واسفاه يا سيرا الجميلة . لقد انقضى على العالم من تاريخ قصتك
 هذه حتى الآن نحو ١٩ قرناً والمبادئ التي بسطت امامك على السنة هذه الحيوانات لا
 تزال في الارض مستبكة متصادمة لعدم انتصار احدها بعد انتصاراً نهائياً . فهل نصيبنا نحن
 البشر في الارض نصيب رفاقك الحيوانات - كالنمل مثلاً (١) - الذين مدينتهم محدودة
 وفهمهم محدود فاذا بلغوا حدّهم وقفوا عنده او عادوا ادراجهم . ام سيخرج في المستقبل من
 احشائك هذه المبادئ شيء ما لتوحيد الانسانية وبناء قصر سعادتها بمبادئ راسخة تكون
 شريعته الحقيقية النهائية

(١) ربي المسيو برتلو العالم الكيماوي المشهور طائفة من النمل واختبر طبائعها فظهر له ان
 معيشتها الاجتماعية في مدن تبنيها وموئن تذخرها ومعاملاتها بعضها لبعض غاية في الدقة
 والعلم والذكاء والفهم . ولكنها متى بلغت فيها حدّاً محدوداً قصرت ووقفت . فالسؤال هنا
 هو : ترى هل نصيب البشر كمنصيب النمل

الفصل الاول

* كنوز سليمان *

واوهام العوام

كانت قرية « مجدل » او « مجدله » كما يقول كتاب الافرنج قرية صغيرة شبيهة بقرى لبنان في هذا الزمان (١) منازلها مربعة كمنازل فلاحيه الا صاغر واكواخها كاكواخهم وطرقها ضيقة غير منتظمة ولا نظيفة كطرقهم . وكانت القرية منبسطة في ارض تعلوها اكمة لا يعلم التاريخ كيف كان تكونها . فلعل الرومان واليونان والفرس حفروا الارض في جوار القرية يطلبون فيها كنزاً كان قد شاع ان الملك سليمان دفنه هناك . او ان الطبيعة نفسها اخرجت من الارض اثقالها بفعل زلزال رفع بقعة وخفض بقعة كما رأينا ذلك رأي العيان في واد الى غربي قرية فيع منذ نحو ١٩ سنة

وفي ذلك النهار الذي جلبت في صباحه الطيور والحيوانات جلبتها التي تقدم ذكرها في المقدمة وصل المكاربان اللذان مر ذكرهما هناك الى قرية مجدل . وكان طريقهما بجانب هذه الاكمة . فقال احدهما وهو يحز بغله بقضيب في يده . يا يوسف هل ترى هذه الكروم الجميلة والتين الخصب والقمح النامي في هذه الاكمة وما حولها . حقاً ان الله خصنا بنعمة عظمى حين وعد سيدنا موسى بارض هذا خصبها . فاجاب يوسف . يا بولس . نعم ان ارضنا خصيبة اما قرأت في كتبنا المقدسة قصة الجاسوسين اللذين ارسلنا الى هذه الارض قبل امتلاكنا اباها لتجسس احوالها واخبارها ثم عادا بعنقودي عنبل لم يستطيعا حملها الا بمشقة وتعب . ولكن هذا الخصب الذي نراه امامك في هذه الاكمة لم ينشأ عن طبيعة الارض وحدها بل هنالك سرٌّ لا شك في انك سمعت به . فقال بولس كلا يا اخي في الايمان لم اسمع شيئاً . فقال يوسف : ان سيدنا سليمان حين ضاقت خزائنه بالكنوز التي

اجتمعت عنده رأى من الحكمة ان يفرقها ويخزنها لحين الحاجة . فاختر سرّاً عشرة اماكن في ارض الميعاد وخبأ في كل واحد منها احد كنوزه . ثم رغبة منه في ان لا يضلّ مخبأها هو وابناؤه بعده دعا للارض التي خبأ بها كل واحد من كنوزه بمزية تميزها عما حولها . فاستجاب الله دعونه وخصّ تلك الارض بخصب عظيم يختلف عن خصب الارض الاعيادي . وقد جمع سليمان يوماً اولاده وقال لهم « يا ابنائي حيثما تجدون في مملكتنا بعد موتي ارضاً ممتازة يخصبها فاعلموا ان هناك كنزاً من كنوزي ينفعكم اذا انقسمت الامة عليكم او تمكّن من وطنكم المحروس من الله اعداؤه الذين يحاربونكم » وهذه الائمة التي تراها امامك هي احد كنوزه

فقال بولس وقد اشرق وجهه لله در سيدنا سليمان ما كان اوفر عقله واظهر فضله . ولكن اما خشي سيدنا سليمان ان يلتفت الناس من غير ابناءة التفاتاً خاصاً الى تلك الاراضي لما يرونه من الخصب الممتاز فيها . وماذا يمنعهم بعد شيوع هذا السر من ان يحفروا اليوم الارض لاستخراج تلك الكنوز

فضحك يوسف وقال وهل تظن ايها الساذج انك اعقل وافهم من سيدنا سليمان ملك العقل والفهم والحكمة . فانه لا شك قد فطن الى هذا الخطر ولذلك جعل في كل مخبأ من مخبأى كنوزه حيواناً هائلاً يرصد الكنز ولا يدع احداً يدنو منه . اما نظرت ذلك الاسد الهائل الذي لقيناه اليوم عند الفجر في الغابة في طريقنا الى هنا رايضاً تحت التينة بغضب وكبرياء وفوقه نسر جاثم على احد اغصان التينة وهو ينظر في جهة الاسد . لا شك عندي ان هناك احد مخبأى سليمان . لان الارض ممتازة ايضاً بالخصب في ذلك المكان . وفي سفرة اخرى كنت ماراً في اول الليل بجهة جنساسة وانا انشد وراء بغلي لاخفف مشقة السير والتعب عنه وعني فرأيت حيواناً هائلاً برأسين وهو تنين مخيف جعل للرصد هناك . فهل تظن احداً يقدر على الدنو من هذه الكنوز وهذه الحيوانات الهائلة ترصدها

فوقف بولس هنا وقال ارحمنا يا رب . وهل رأيت الحيوان الهائل الذي يرصد هذه الائمة في سفرنا الى مجدل

فضحك يوسف ضحكة ذات معنى مخصوص وقال نعم رأيت . ما لك وقفت تقدم ولا تخف فان الوقت نهار . وهذا الحيوان لا يسرح الا في الظلام ..

ثم ضحك هنا ضحكة اشد من الاولى

فقال بولس وقد تابع المسير بوجل . وما شكل هذا الحيوان الهائل اهو اسد ام تنين

ام غيرها

فقال يوسف . هو افعى هائلة يا بولس . هي من الافاعي التي تبتلع البشر كما تبتلع انا وانت حب هذا العنب

قال هذا ثم وثب عن سياج الطريق الى كرمه في بستان هناك فقطف منها عنقود عنب ثم عاد مسرعاً وهو يا كل منه

وكان بولس في اثناء ذلك يفكر بخوف ووجل في الافعى الهائلة . فلما عاد اليه رفيقه قال : انك بعد ذكرك هذه الافعى لو وهبني بفلك على ان ادخل هذا البستان لقطف هذا العنقود لما فعلت . لاني اعلم ان الافاعي لا يلذ لها شيء كالاخباء والزحف بين الكروم . ولكن اخبرني ما شكل هذه الافعى التي تبتلع البشر . اني اتذكر ان احد رفاقنا في جنيساره قص علينا في احدى السهرات قصة افاعي هائلة توجد في بلاد بعيدة لم يتمكن احد من الوصول اليها حتى هؤلاء الخنازير الرومان الذين بلغوا اطراف الدنيا . وقد قال ان الواحدة منها اذا اصابت خروفاً او عجلاً فانها تبتلعه بسهولة (١) فما هي هيئة هذه الافعى فقال يوسف ضاحكاً . رأسها كراش امرأة . وجسمها كجسمها

فدهش بولس وقال . لا شك في انك مازح . يظهر انك لم ترها وتزعم انك رايتها فقال يوسف . بل رايتها رايتها غير مرة . وان شئت ان تراها معي فهل الى مكانها فقال بولس . واين مكانها

فدأ يوسف اصبعه نحو بيت في منتصف الائمة بين سطحها وسفحها وقال : انظر هذا البيت الاسود القائم هناك فانها تقيم في هذا البيت

فقال بولس ضاحكاً . مالي اراك راغباً في المزاح في هذا الصباح . يظهر انك راض عن اجرة الحمل الذي يحمله بفلك اليوم . اني ما عهدت الافاعي تسكن المنازل . ولا ارى هذا البيت اسود كما نقول فانه ذولون احمر

فقال يوسف اسمع يا بولس . اني سميت هذا البيت كما يسميه اهل هذه القرية . فهم يسمونه اسود مع كونه احمر . وهم واولادهم يخشون من الدنومنه ويفرون من قربه فرارهم من الشياطين لانهم يعتقدون ان الافعى التي تسكنه يسكن في جوفها سبعة شياطين . ولذلك ترى مكان هذا الكنز محروساً ومصوناً كما لو كان جيش يحرسه . وان اولاد القرية يعشون بجميع الحقول والكروم الا الكروم التي حول هذا البيت لاعنادهم بنجاستها .

(١) هي افعى في الهند معروفة باسم (بوا)

ولجلهم اسباب هذا الخصب الممتاز هنا يعتقدون ان الارض لم تخصب هذا الخصب الا بفعل الشياطين الذين يسكنون بينها . اما الانبي التي تسكن في هذا المنزل فافهم ايها اللبيب انني اردت بها افعى بشرية لا افعى حيوانية . اما سمعت بصيت (مريم المجدلية) التي يسكن فيها سبعة شياطين

وكان المكاريان في اثناء هذا الكلام قد تجاوزا الائمة ودخلا القرية يسوقان بغليهما ويتمان حديثهما . ولم بكادا يتواريان عن النظر حتى انفتحت في البيت المذكور احدى نوافذه بقوة وشدة وظهر في النافذة وجه امرأة تنظر بامعان في جهة الطريق المؤدية من اوروشليم الى مجدل

الفصل الثاني

✽ في البيت الاسود ✽

المريم الخفي غير المما الظاهر

كان البيت الاسود مبنياً في منتصف الائمة بين الكروم والزروع . وكان مؤلفاً من ثلاث غرف صغيرة مربعة يدخل من احداها الى الاخرى وكانت احدى الغرف مطبخاً والثانية مقعداً والثالثة غرفة نوم . وكان في غرفة المقعد سرير من خشب وعليه فراش . وكانت هذه الغرفة مزينة بسلامة ذوق الا ان الزينة الجميلة كانت لغرفة النوم . فقد كانت الازهار الطبيعية والصناعية منظومة باقات باقات ومصفوفة في زوايا هذه الغرفة ورفوفها وعلى مائدتين فيها فاذا فتحت نافذتان كانتا في جدارين فيها ونظرت منها الاشجار حول البيت لتدلى باغصانها نحو النافذتين وهي مثقلة بالزهر والثمر وشوهد البنت الطبيعي والزهر البري الذي كان يغطي الارض خوله خيل الناظر ان داخل الغرفة المذكورة مختلط بالحديقة في خارجها وكأنه جزء منها ولتمة لها

وكان في سرير غرفة النوم في ذلك الصباح امرأة راقدة على جنبها الايمن وبداها اليمنى في اثناء رقادها تستروجهها . وكان لها في رقادها منظر يشبه منظر الاطفال لولم يكن يمازجهم شيء من لوائح الالم والاضطراب . او ان شئت فقل ان منظرها كان كمنظر طفل

رقد وهو باكٍ متاءلم فانطبعت دلائل الاءلم في سحنه في الساعة الاولى من رقاده
ويظهر ان المرأة عقدت النية قبل رقادها في الليل ان تنبته باكرآ ولذلك ما فتحت
جفניה وتمطت قليلاً حتى وثبتت بغتة كأنها نسبت امرآ وخافت فوات وقته . فاستوت في
فراشها وصاحت بأشد صوتها : حنة حنة

فدوى صوتها في فضاء الغرف الثلاث برخامة وبجة لانه كان اول صوت خرج من
حلقها بعد رقاد بطلت فيه حركته واستعماله . وكأنها قد اطالت السهر ليلة امس لان
الضعف كان ظاهراً في وجهها لذبول عينيها وارتحاء جسمها فضلاً عن بجة صوتها
ولما رأت المرأة انه لم يجاوبها احد على صراخها صرخت ثانية بصوت اشد : حنة
حنة . قد انتصف النهار

فاجاب هذه المرة صوت خارج من غرفة المقعد . صحتُ صحتُ . ثم سمع لصاحبة
هذا الصوت تاوه وتأنف لا يعلم هل كان ناشئاً عن تحسر لامر فيه الم او عن تمطرٍ لاعادة
اعضاء جسمها بعد الرقاد الى حالتها الطبيعية من الخلة والمرونة
فقلت المرأة الاولى بصوت رفيع ايضاً . اني مريضة في هذا النهار انهضي وانظري
من النافذة لعلك تريه قادماً

فنهضت حنة من فراشها في غرفة المقعد وهي لتثاءب وتترنم بنشيد هذه ترجمته

صحت الازهار والطيور * وهو لم يصح بعد
ليس ذا من دمه الثقيل * ولكن من السهر الطويل
يا حياتي يا قصيرة * امتلئي بلا فراغ
فحياتي في فنائي * وفنائي لي حياة

ولما بلغت حنة النافذة فتحتها واطلت منها ثم قالت . انني لا ارى على الطريق احداً
غير مكارين وراء بغلين يتحادثان ويلتفتان الى هذا المكان

فقلت المرأة الاولى لله ما اثقل هذا الروماني . الم بعدك انه ياتي في هذا اليوم
ولكنها ما انت على هذا الكلام حتى مدت من احدى نوافد البيت في الخارج عنق
رجل وقال : ليس جميع الرومان ثقلاء . اسمعان لي بالدخول لاذهب عنكما ملل انتظار
بوليوس

فضحكت حنة واما المرأة الاولى فضحكت ضحكة اغنصائية ثم قالت . هذا انت يا
شيشرون . ادخل حقاً ليس جميع الرومان ثقلاء

فسارت حنه وفتحت الباب فدخل منه شاب في نحو الثلاثين من العمر، والذي لم ير هذا الشاب من قبل يعجب لشكله الغريب، فقد كان نحيف الجسم قصير القامة كانه من الاقزام وكان جسمه الصغير مشوهاً تشويهاً مضحكاً فقد كان محدوباً كانه يترامى نحو الارض قبل الاوان وبين كنفه دملة كبرى طبيعية تظهر من وراء ثيابه اما راسه فكان ضخماً ووجهه اصفر لحيماً ولا تناسب بينهما وبين جسمه الصغير الضئيل، وقد كان فيه اذا فتحه للكلام اشبه شيء بمغارة واسعة تحت انف ضخمة مفلطح وشاربين ليس فيها سوى بضع شعرات صغيرة، الا ان عينيه الكبيرتين الحادتين فوقهما كانتا تدلان على ان الطبيعة التي خصته بذلك الجسم المشوه القبيح قد عوضته قوة في نفسه كانت تظهر في كل نظرة من نظراته، وكان في يده عصا من رمان يتوكأ عليها موازنة لجسمه المترامي نحو الارض فلما دخل هذا الشاب قالت له المرأة الاولى بعد السلام كيف ترى نفسك يا شيشرون في بلادنا هل انتسك رومه

فتاوه الشاب وكان يدعى شيشرون كما رايت وقال: جميع البلاد سواء لدي فاني ابن الارض لا ابن رومه، ولم يلذ لي في حياي شيء كجلوسي حيناً بعد حين تحت صفافة قريبة من هذه الائمة حيث اطالع مؤلفات سنيكا وايجيولوس وازوب فهنا صاحت حنه بضجر لا تبتداء بالفلسفة يا صديقنا شيشرون، اذهب وادع دعوتك خارج هذا البيت، اما هنا فان شئت بسطنا وشرح خاطرنا فحادثنا عن زهرة جميلة قطفتها من البرية او امرأة ظريفة شاهدتها في طريقك وابستمت لك، او نادرة عن بعض سيدات اوروشليم الفاضلات، اسمعت ايها الفيلسوف المضحجر فنظرت المرأة الاولى هنا الى حنه نظرة سئامة ثم التفتت الى شيشرون وقالت: لا تعباً بكلام هذه المرأة الخفيفة عقلاً وروحاً يا عزيزي شيشرون فانت تعلم من حديثي الطويل معك اول امس في ظل النخلة التي هناك اني ارتاح الى الاصغاء الى حديثك في اي امر كان، فاخبرني هل عزمت على الإقامة في بلادنا ام تنوي العودة الى رومه بلاد العظمة والعطاء

فقال شيشرون: اني افضل ان اكون اول انسان في هذه البلاد الصغيرة على ان اكون آخر انسان في تلك البلاد الكبيرة، ولست اعن على اخذك حنه لضجرتها من كلامي ومواضيع حديثي ذلك لانني اعرف قلوب النساء، اي نعم اني اعرف قلوبهن ونفوسهن الخفيفة الطائشة التي لا يلد لها شيء كالاشتغال بالمعاطف والاهام، ولذلك ترين على

الدوام مسافة الخلاف بين اذواقهن وذوقي . واما هن واما لي شاسعة جداً . عفواً اذا ساء لك كلامي ايتها السيدة مريم . انني استغرب حكمة الالهة السخيفة التي خلقت في الارض كائنات كالمرأة خفيفاً طائشاً هاذباً على الدوام . ولذلك لا احترم النساء الا المرأة التي تكون لها صفات جدية قوية كصفات الرجال . مثلك مثلاً ايتها السيدة مريم . وكانت مريم « وهي المرأة الاولى » قد اصبحت مبهوتة مفكرة في اثناء كلام شيشرون . اما حنه فكانت تنظر اليه وهي تضحك بازدياد كأنها تقول له بضحكها هذا : لورأت في حياتك يا صاحب الجسم القبيح امرأة تجيبك او تنظر اليك لتبدل رأيك في النساء من طرف الى طرف

وفي هذا الحين سمع في الخارج على الطريق بجانب البيت صوت ركض جواد فهرعت مريم وحنه نحو النافذة وبعد نظرهما فيها صاحنا معاً . هذا يوليوس . ولما صار الفارس وفرسه على موازاة البيت في الطريق مر كالسهم بين بضعة اولاد من القرية كانوا يلعبون هناك . فقال احدهم لآخر بعد مروره هذا خنزير روماني . ولما عطف الفارس وفرسه صاعداً نحو البيت الاسود بهت الاولاد وصاروا ينظرون بعضهم الى بعض . ثم قال احدهم : لو لم يكن هؤلاء الرومان شياطين لما كانوا يجسرون على الدخول من بيت يسكنه سبعة شياطين

وكان الفارس القادم شاباً في آخر دور الشباب لانه كان يهاهن الثامنة والثلاثين . وكان طويل القامة منتصباً على ظهر جواده كان جسمه الف الهجاء . وكان ذا لون ناصع البياض وشاربين اشقرين جميلين وعينين زرقاوين فيها قوة وكبرياء تدل على انها من سلالة جنس الف السيادة والعظمة ولم يجز عليه نبر . واذا كان ذلك لا يكفي الناظر اليه للدلالة على انه كان رومانياً لا شك فيه فقد كان انه النسري الدقيق ثبت له هذه الصفة . وكان التأثر الذي ينبعث من وجهه وجسمه اجمالاً مما يروق النظر وينشئ في النفس ارتياحاً الى منظر كهذا للمظهر جامع لقوة الرجولية وعزتها وخفة الشباب ورقته بين جنس بدأ ينجي عنقه للذل فربط الفارس فرسه في غصن كرمة بجانب البيت ثم دخل اليه . فاستقبلته مريم وحدها .

اما حنه فكانت قد اخبأت بسرعة مع شيشرون في غرفة المقعد فقالت له مريم ضاحكة وهي تصلح شعرها بيدها . لقد ابطأت علينا ايها العزيز فهل شغلتك سيدات اوروشليم عنا

فقال الشاب . انك ترين في وجهي ايتها العزيزة انني في اشتغال بال . فلا سيدات اوروشليم ولا ممازحاتنا الاعيادية تشرح صدري في هذه الايام . فقد دهنتي مصيبة

منعتني من زيارتك منذ ١٥ يوماً وليس لي قوة على ان اذكرها لك الآن ..

فدهشت مريم وقالت بحزن . كل شرٍ يصيبك ايها العزيز فانما يصيبني . لقد شغلت بالي وهجت بلبالي . ما هذه المصيبة يا بوليوس

فقال بوليوس . وردتني من رومه اخبار سيئة جداً . فان ابني خسر جميع امواله واعدائي هناك لا يكفون عن الوشاية بي لدى اولى الامر وربما تمكنوا من عزلي من المهمة السرية التي اُنفِذت الى هذه البلاد من اجلها كما تعلمين . ولذلك اصيحت مضطراً للعودة الى رومه . وهذه آخر زيارة مني لك ابنتها العزيزة

فهنا ازدادت دهشة مريم وعضت شفتها من الغضب والغيظ . ولكنها تغلبت على نفسها وقالت . اتذهب وتركني وحدي . لماذا لا تصطحبني

فضحك بوليوس ضحكة حزن وقال : ان في رومه كثيرات من السوريات واليهوديات الجميلات ابنتها العزيزة لان الرومانيين يحبون هذين الجنسيتين . فلا مانع يمنعني من اصطحابك . ولكن تذكرني ان ابني قد خسر جميع امواله وانني ساصبح مضطراً الى الاستخدام لاتيكن من المعيشة اذ من الراجح لدى انني ساعزل من وظيفتي . وقد جئت الآن اودعك واودّي لك آخر واجب عليّ

قال هذا ثم مدّ يده الى جيبه فاخرج منه كيساً مملوئاً بالنقود فوضعه على مائدة هناك ثم قال ارجوان تقبلي هذا الكيس تذكراً مني . ثم اخذ يدها بين يديه وقال . كلما تنزهت هناك على سطح الائمة في الليالي المقمرة بين الكروم والنخيل والتين والرمال ارجوايا مريم ان تذكريني

وكانت مريم جامدة مبهوتة في انثناء هذا الكلام لا يتحرك منها شيء حتى عيناها . ويظهر ان حديث بوليوس قد احدث ثورة في نفسها ولذلك ذهب منها الفتور والذبول اللذان كانا فيها منذ نحو نصف ساعة وحلت محلها الكبرياء والحاسة . وقد نظر بوليوس دمعة لترقرق في تلك العينين الزرقاوين الجميلتين فاثردمعها في نفسه . فلم يتالك ان تنهد وقال :

لماذا تبكين ابنتها العزيزة . انني ما زلت احبك كما كنت من قبل . واعدك انني اذا اصلحت اشغالي وتمكنت من العودة الى هذه البلاد فان اول عمل اشرع فيه هو كما وعدتك سابقاً ان نبني بيتاً لنا في جوار اوروشليم لنعيش معاً بشرف وراحة وسلام . فاسمعي دمعك ابنتها العزيزة فانه بصدع قلبي ويؤلمني في سفري

فلما رأت مريم يوليوس يسترسل في تسكين بالها والاعتذار اليها ابتسمت واجابت
انك نظن انني ابكي يا يوليوس والحقيقة انني لا ابكي . ثم ضحكت ونادت باعلى صوتها : حنه
حنه . وقالت له الا تريد توديع حنه قبل سفرك

فدخلت حنه وحيث يوليوس فاخبرتها مريم خبر سفره . وبعد برهة كان يوليوس على
جواده عائداً الى اوروشليم من حيث أتى

وفي عودته من البيت الاسود مرّ بين الصبية الذين كانوا يلعبون على الطريق في
سفح الالكمة فافسح له الصبية الطريق بخوف ورهبة خشية ان يكون احد الشياطين
السبعة قد علق به في ذلك البيت . وكانت مريم قد خرجت من غرفتها الى الكرم طلباً للهواء
النقي لانها شعرت بثقل الهواء في غرفتها وضيق صدرها بعد حديثها مع يوليوس وسفره .
فتبعتها حنه وشيخرون ليشاهدا جواد يوليوس بعدو . وكان مريم شعرت بخطاها في خروجها
في ذلك الحين من البيت لازدياد المها فنكصت راجعة الى غرفتها . ولكنها لم تخط خطوتين
حتى انطرحت على الارض مغنى عليها وهي تصرخ صراخاً شديداً واعضاؤها تشنج تشنجاً مخيفاً
فهرعت اليها حنه مع شيخرون وهو يتوكأ على عصاه . ولم يفت هذا المشهد الصبية
الذين كانوا يلعبون على الطريق . فلما شاهدوا مريم تنطرح على الارض وتصرخ متشنجة ذلك
التشنج هلعت قلوبهم واصفرّت وجوههم واخذوا يعدون نحو القرية . ولما بانوها اخذوا يقصون
على اهلهم ما راوه بجانب البيت الاسود وهم يلثثون من التعب والذعر . فقال احدهم انه
راى ثلاثة شياطين ترقص فوق جثة المرأة وتضحك لصراخها . وقال آخر انه راى شيطاناً
راسه في السحاب وقدماه على التراب بجانبها وهو يدوس بهما حيناً بعد حين على بطنها . وكان
اليوم يوم سبت فاجتمع اهل القرية في معبدهم يقرأون الزبور والتوراة طلباً لله ان يبعد عن
قريتهم هذه المرأة وشياطينها

الفصل الثالث

❀ سنيكا الاديب وسنيكا الفيلسوف ❀

ولما انصرف المجدليون من معبدهم قصدوا الخلاء خارج القرية وهم ينظرون شزراً الى
البيت الاسود الذي كان قائماً على الالكمة امامهم . وكان الرجال والنساء يسرون متلفتين

سنيكا الاب والابن

بجوف واضطراب نحو البيت وبسطاولون لرؤية ما فيه من بعيد اما الاولاد فكانوا يركضون لاعبين امامهم غير مباينين بشيء لان حوادث الدهر مها جلت وعظمت لا تقم في اذهانهم الصغيرة الخالية الا مدة قصيرة . فلما صار الجميع خارج القرية يتعمون بنور الشمس والهواء النقي مروا بغلين يرعيان العشب وبجانبهما مكاريان يتناولان طعاماً على عباءة فرشاهما امامهما على العشب . وكان المكاريان صاحبين يوسف وبولس . فاستوقفا احد الاولاد وهما يا كلان وسألاه عن سبب الاجتماع . واذ علما به ضحك يوسف وارتعدت فرائص بولس . فقال ليوسف انك تغيطني بضحكك يا يوسف وانني اقسم بالزبور والتوراة ان هذه آخر سفرة لي الى هذه القرية الملعونة « المسكونة » (١) فازداد يوسف ضحكاً وقال ما قولك يا بولس اذا جاءك الآن احد يطلب منك اركابه بفلك الى هذا البيت اترد طلبه وتخسر الاجرة

فوئب بولس هنا عن الارض كما بدفع دافع وصاح بغضب . استعيز بسيدنا داود وسيدنا سليمان من مزاحك البارد . وهل تظني فقدت عقلي حتى اتى بنفسي وبغلتي بين الشياطين . وماذا تفيدني الاجرة القليلة التي اقبضها لنقل رجل الى هذا البيت الملعون اذا علق بي او بغلتي او بنا كليتنا احد الشياطين السبعة الساكنين في الساكنة في هذا البيت . فان هذه الشياطين الملعونة تكره الاقامة في جوف امرأة قدرة فضلاً عن انها اعتادت التنقل ولا يمكنها الثبات في مقام . وكذلك لا تعرف ايها المسكين ماذا يصيب الشخص الذي يسكنه شيطان فانا اخبرك خبره فقد سمعته من رفيقي المكارى اندراوس في جنيساره . فان المسكون يشعر اولاً ان شيئاً كقضيبي من حديد محمي ادخل في جوفه من عجزه الى قمة راسه فيغيب عن الوجود ويغمى عليه لان الشيطان يقبض روحه بيده ويطير بها في اعالي الجو لتعذيبها هناك ويترك الجسم على الارض . ولذلك ياخذ هذا الجسم في الاختباط والتشنج والاضطراب لشوقه الى روحه ورغبته في استردادها . ولما بصير الشيطان مع الروح في الجو ياخذ الشيطان في تعذيبها وهو ضاحك مشروح الصدر . فتارة يضغط عليها بقبضتيه فيخنقها ثم ينفخ فيها فيعيد الحياة اليها . فتعذب الروح بذلك عذابين عذاب الموت وعذاب الولادة ثانية اي العود الى الحياة . وطوراً ياخذها من فوق السحاب ويقذف بها الى الارض بقوته الجهنمية فتصير قطعاً قطعاً . فيهبط اليها بجناحيه الهائلين كأنه تنين هائل هابط من السحاب فيجمع قطعها بذنبه الطويل الخفيف ثم يسماها مساً باصبعه فتعود كما كانت . وآونة يربطها بطرف ذنبه

(١) اي المسكونة من الشياطين وهو تعبير كان عامياً في ذلك الزمن ولا يزال كذلك

اليوم في فلسطين والشام

ثم يديرها به في الهواء كما يدار المقلاع للرمي به وحين يبلغ دورانها اشدّه يرمي بها الى بعيد كما يرمى السهم فرميا وقعت في اورشليم مثلاً اذا رميت من هنا . وبعد ذلك بكفي ان يمدّ اليها من اعالي الجوّ راس ذنبه ويحركه بعض الشيء ضاحكاً صافراً بفمه الهائل فتري تلك الروح المسكينة قد انجذبت اليه من تلقاء نفسها . واحياناً ينفخ عليها بنفسه الناري فيذيبها شيئاً فشيئاً كما يذوب الثلج بجزّ الشمس ثم باخذ ذائبها ويبدّل نفسه الناري بنفس ثلجي وينفخ عليها فعود كما كانت . فهل انت مجنون يا يوسف لتعتقد اني التي بنفسي وببغلي المسكين في هذه التهلكة الهائلة

ولم يكذب بولس يتم كلامه حتى سمعت فقهة من وراء فالتفت المكاربان فابصرا تحت شجرة على مسافة مائة متر منها رجلين جالسين في ظل الشجرة وامامهما رجل ثالث واقف يحادثهما ويضحك . ثم نهض الرجلان وسارا بقصدان المكاربين يوسف وبولس . والرجل الثالث يتبعهما

وكان احد الرجلين شيخاً طاعناً في السن يقارب سنه الثمانين . والثاني شاباً يقارب سنه العشرين (١) وكانت ملامح وجهيهما متشابهة فالذي يراها لا يشك في ان بينهما نسباً . فقد كانا طويلي القامة عظيمي الهامة شعرهما مسترسل على رقبتيهما ووجههما ضخم مستدير تلوح عليه لوايح الهيبة والسكون كانهما من اعنادوا التأمل والروية . ولا كبرها سنًا لحية بيضاء تطوق وجهه . ولكليهما جبين منسج تحتها عيان قويتان هادئتان تدلان على نفس جمعت بين نقيضين : قوة الحركة والسكون (٢)

ولما بلغ الرجلان الى المكاربين انبرى الشاب وقال باللغة اللاتينية . انؤجراننا بغليكما الى مسافة قريبة . ولما لم يفهم المكاربان كلامه انبرى الرجل الثالث الذي كان يتبعهما وقال لها ذلك القول باللغة العبرانية السريانية لغة اهل فلسطين في تلك الايام . وكان هذا الرجل ترجماناً اسرائيلياً قدم مع الرجلين في سياحتهما

فنهض المكاربان مسرورين لاعداد بغليهما . ولكن بولس سال الترجمان الى اين

(١) ولد سنيكا الاب في سنة ٦١ قبل الميلاد وتوفي في سنه ٣٠ بعده . وهو تقريباً الزمن الذي شرع فيه يسوع يعلم . وولد سنيكا الابن في سنة ٢ بعد الميلاد وتوفي في سنة ٦٦ بعده . وابتدأت حوادث هذه الرواية حين كان سن يسوع ٢٠ سنة

(٢) صفات سنيكا الاديب « الاب » وسنيكا الفيلسوف « الابن » هنا مأخوذة

من تمثال برونزي لسنيكا في متحف نابولي ورسم للرسم المشهور روبان

سينكا الاب والابن

يقصد سيداك الخنزيران . فعبس الترجمان وقال 'اسكت باملعون لانني اخاف ان يفهم كلامك . ثم اجابه انهما يقصدان الائمة القريبة التي عليها ذلك البيت الاحمر . فلما سمع المكاريان هذا الكلام عبس بولس وانتفض من الغضب وضحك يوسف حتى فقهه . وقد ابى بولس اباؤا شديداً اركاب بغله الى تلك الائمة . وبعد جدال شديد بينه وبين رفيقه يوسف اتفقا على ان 'يركباها الى سفح الائمة وهناك يقبضان اجرتها وينصرفان . ولما علم الشيخ والشاب بهذا الشرط ضحكا لانها كانا قد سمعا وهما تحت الشجرة حديث المكاريين . وقال الشيخ للشاب : لولا سني وضعني لما كلفت هذا المسكين عناء نقلي الى مكان يحاذر الدنومنه . فاني اشفق ان تطير نفسه الساذجة شعاعاً لوم بتوهمه هناك . فاجاب الشاب . علينا يا ابتاه نحن معاشر الرومان اسياد هذه البلاد ان نكون اوصياء على اهلها . فاوهامهم وخرافاتهم التي لا تزول باللين واللطف يجب علينا ازالتها بالقوة والعنف فركب الشيخ والشاب وسار المكاريان والترجمان وراء البغليين . وبعد برهة قال الشيخ . ان ما قلته الآن يا لوسيوس مخالف لمبدأنا في سياسة الامم على خط مستقيم . فنحن لا نطلب امراً من الامم التي نملك بلادها غير الطاعة والجزية وتركها موالة اعدائنا . اما اوهامها وخرافاتها واديانها ومبادئها فلا نتعرض لها (١) وفعلنا هذا حسن يا بني لعدة اسباب منها اننا اذا اردنا استئصال الاوهام والخرافات وجب علينا ان نبداً بالتالي عندنا في بلادنا بين قومنا

وكان بولس يسير وراء بغله خائفاً ونظره يقجد حيناً بعد حين نحو البيت الاحمر على الائمة . اما يوسف فكان يسأل الترجمان عن الرجلين . فاخبره الترجمان ان الوالي الروماني في اورشليم لما علم بقدموها الى هذه البلاد خف لاستقبالها اعظم استقبال لانها من عظماء رومه . وقد سار بنفسه يريهما آثار المدينة وشوارعها . وفي ذات يوم اخبراه عن رغبتها في السياحة في داخل البلاد فخذرها من هذا الامر بحجة ان المتحمسين منا كثيرون فيخشى ان يصيبوها باذى خاصة في هذا الوقت الذي اشتد فيه الاضطراب وطمحت انظار شعبنا الى رجل يقوم لطرد الرومانيين من بلادنا واعادة سيادتنا على العالم . ولكن لما رأى اصرارها على مشاهدة البلاد والعباد في هذه الارض التي يزورانها مبتهمين مزدربين بها دعائي اليه لما يعرفه من قدرتي على حمايتها لدى قومنا وعهد اليّ السفر معها . ثم قال لي « لم ارسل معكم جنداً لحراستكم لاننا لا نتخذ جنداً من هذه الامة . والجنود الرومانية اذا

(١) رنان « تاريخ المسيح وتاريخ بني اسرائيل » مونتسكيو « اسباب عظمة الرومان »

ظهرت ملابسها واسلحتها في داخل البلاد كان ظهورها سبباً في الهياج عليكم بدل حمايتكم «
فقتل هنا بولس شاربيه ورفع راسه وقال معتزلاً أرايتم كيف يخاف هؤلاء الخنازير
منا . آه لو كان سيدنا داود او سيدنا سليمان عاشاً في هذا الزمن فانه كان اغرقهم جميعاً
في بحر طبريا وفتح بلادهم حتى رومه

فضحك يوسف وقال اذا كان جنده شعباناً مثلك يخافون حتى من الدنو من هذه
الأكمة فانه لا يقدر ان يفتح حتى باب قصره
فخطب بولس وقال أ بلغت بك القحة وحب المزاح ان تهزأ حتى بسيدنا داود حقاً
يا يوسف انك اصيبت ثقيلاً

فقال يوسف مجدي كلاً لا امزح ايها الابله وانما اقول الحق . أ تظن شعبنا مع ما
طراً عليه من الذل والضعف والتشتيت مراراً واهمال الرؤساء تربيته الاجتماعية العسكرية
الاولى وفقدته الحماسة والجامعة القديمة — انظنه الان مع ما تقدم قادراً على الثبات امام
جبايرة الرومان وجندهم الكثيف وقوادهم الابطال

فخمس بولس وقال . انك مخطئ في قولك اننا فقدنا حماسنا . أما سمعت بميخاس
الذي قتل في ذلك اليوم رجلاً في طبريا كان يعترض على شريعتنا . فاية حماسة اشد من
بذل انسان نفسه في سبيل الدفاع عن شريعته (١) واية جامعة افضل من هذه الجامعة .
ثم ايها المسكين أنتسى « جشوان . مشيا » (٢) الذي تنتظره لانتقادنا واعادة مملكتنا .
فهل تزعم ايضاً انه اذا جاء الان ملكنا جشوان يهجز عن قهر خنازير الرومان وطردها عنا
فهم يوسف بالجواب ولكن الشاب لوسيوس نادى في هذا الحين الترجمان والمكاريين
فدنوا منه فقال الشيخ للترجمان ان لوسيوس راي خوف هذا المكاري « وأشار الى بولس »
من الدنو من الأكمة والبيت الاحمر الذي عليها لاعتقاده ان الشياطين تسكنه وتسكن
المرأة المسكينة المقيمة فيه . وبناء على ذلك يرغب في ان تكون ترجماناً بينه وبين هذا
المكاري ليحدثه حديثاً ينفعه . فترجم بينهما

فقال الشاب لوسيوس ما اسم هذا المكاري فاجاب الترجمان اسمه بولس . فقال
لوسيوس . بولس بولس . انني اجد هذا الاسم جميلاً . وقد حلت ابي يوماً بان الناس

(١) كانوا يسمون هؤلاء القتلة « غنام » او « القتلة الدينيين »

(٢) معنى جشوان بالعبرانية « جيوفاه المخلص » وجيوفاه الله . ومشيا المسيح . وكلا
الاسمين يطلق على المنتظر عند اليهود وكانوا كثيري اللهب به في تلك الايام

سيكذبون علي في آخر حياتي ويصنفون عن لساني رسائل الى شخص يدعى بولس (١) وقد خافت ان يكون ذلك لدسيسة سياسية . فسل بولس عن لساني من اين علم ان المرأة التي رآها صبية القرية تخبط وتشنج على الارض امام بيتها يسكنها سبعة شياطين . فاجاب بولس علمت ذلك من رفيقي يوسف ومن احد اولاد القرية . فقال لوسيوس انك علمت منها انها تخبط وتشنج في حال غيوبتها . وهي مشاهدة حقيقية . ولكن الا يمكن ان يكون لذلك علة غير الشياطين . ففتح بولس فاه كستغرب وقال وما عسى ان يكون سبب ذلك غير الشياطين . وكيف تذهب روحها منها وتغيب عن الوجود اذا لم يخطف الشيطان روحها ساعة او نصف ساعة . فاجاب يوليوس اني الان اذا نزلت عن بغلي والتقت هذا الحجر الذي هناك وضربتك به على رأسك ضربه شديدة فانك غمي عليك وتغيب عن الوجود فهل ذلك دليل على انه دخلك شيطان ام يكون سبب غيوبتك ضربك بالحجر على رأسك . فسكت بولس ولم يجب . فقال لوسيوس وهل تظن ان الشياطين موجودة في هذه البلاد دون غيرها ام توجد في غيرها . فاجاب بولس لا اعلم . فقال لوسيوس اني اعرف رجلاً يونانياً (٢) رأى في بلاده كثيرين من الرجال والنساء الذين يصرعون ويقولون عنهم ان الشياطين تسكنهم . وقد كتب في هذا الموضوع كتاباً تقدّم به آراء العلماء في المستقبل وساترجم لك شيئاً منه اذا اردت عند عودتنا من الامة لانه بين امتعتي في مجدل . وهو يقول ان ذلك الصرع « او الشياطين كما تقولون » علة تصيب الجسم وداء ناشئ عن هياج الدم والاعصاب . وهو يسميه « العلة المقدسة » لانه كثيراً ما يصيب المجانين ولبعض الناس راي في تقدس المجانين . فهذه المرأة المسكينة التي اخذتنا الشفقة عليها بعدما سمعناه من حديثك مع رفيقك وما استفادته ترجماننا من اولاد القرية وما بلغنا عنها في غير هذا المكان . انما هي مصابة بداء بشري ومرض اصبح اليوم سببه معروفاً . ولا دخل للشياطين فيه فهت هنا بولس وصار ينظر الى يوسف ويوسف ينظر اليه مدهوشاً ايضاً . فاستأنف

(١) اذارة الى ثلاث عشرة رسالة يزعم بعضهم ان سينكا فيلسوف الرومان العظيم « وهو هنا الابن » كتبها من رومه الى الرسول بولس ولكن المحققين يرجحون انها رسائل مخنقة . على ان اخلاقتها قديم جداً لان القديسين اوغوستينوس وجيروم يشيران اليها في كتاباتها

(٢) هو ابوقراط المشهور ولد سنة ٤٦٠ قبل الميلاد

لوسيوس كلامه قائلاً . وسرانا الآن بعد وصولنا الى البيت نمسك يد تلك المرأة المسكينة ونرش وجهها وصدرها بالماء ونقيم في البيت ما اردنا دون ان نخاف شراً ولا ضرراً . فهل فهمت الآن سبب علة هذه المرأة

فهز بولس راسه وقال . كان شرطنا ان نركبكم الى سفح القرية . فادخلوا انتم البيت وجسوا يد صاحبه وآخوا شياطينها اذا شئتم . اما انا وبغلي فلا نخطو نحو البيت خطوة واحدة

فقال الشيخ الاب : هل رأيتم يا لوسيوس مبلغ تاثير درسك في نفسه . فانك شرحت له سبب هذه العلة شرحاً جلياً فلم يصدقك ولا بالى بكلامك وربما استصغر عقلك واستقل فهمك . فيابني دع البشر السذج في اوهامهم واحلامهم التي ورثوها مع دمائهم ورضعوها مع الحليب منذ نعومة اظفارهم . ولكن استمالك العلم والحقيقة كما يستعمل الزارع البزور التي يزرعها في حقله . فانها قد تقع في ارض جيدة فتقوم وتجد . وقد تقع في ارض شائكة جافة رديئة فتموت . ولا يحظر حينئذ في بال الزارع ان يرغم هذه التربة الرديئة بان تقبل بزرته وتنميها لعله ان ذلك فوق طاقتها . الا اذا اصلحها واعد تربتها لذلك الانماء من جديد . وليس البشر كالتربة فانه متى انعقدت الواهم وخشنت عظامهم لم يبق سبيل لتغيير نفوسهم

الفصل الرابع

✽ الفيلسوفان بجانب فراش مريم ✽

ولما انتهى البغلان الى الاكمة ترجل الشيخ والشاب حسب الاتفاق واثارا الى المكاربين ان ينتظراهما في السفح . ثم صعدا الاكمة نحو البيت يتبعهما الترجمان ويظهر ان من في البيت ابصروا من النافذة الرجال الثلاثة قادمين نحوهم فهرعت حنة الى النافذة ثم قالت لشبشرون بعد ان انعمت النظر في القادمين — لا اعرف هؤلاء الرجال

فدنا شبشرون من النافذة ورأى منها دون ان يرى فيها ثم قال مستغرباً . اظنهم من قومي الرومان علي ما ارى في ملابسهم
وكان الشيخ اديب رومه وصاحب البيان فيها يصعد الالكة الهويناء وهو يلثت تعباً من ثمانين سنة كانت تُثقل كاهله

ان الثمانين وقد بلغتها قد احوجت سمعي الى ترجمان

وكان يسير وهو يقول لابنه فيلسوف رومه الاعظم في الغد . استاذ نيرون . وعظيم حكماء الرومان

انظرا يا بني هذا البيت الحخير الذي امامنا . انه بضم داء ين داء الصرع وداء الفساد .
واظن ان التبعة فيهما واقعة على رومه التي تريد ان تكون سيدة العالم . اجل يا بني ان هذا الشعب الساذج الصغير كان يعيش في بلاده الساذجة الصغيرة بسكينة وخمول . وكانت حالته ومعيشته منطبقة على اخلاقه وصفاته فكان هادئاً ساكناً راضياً . ولكن ارادة رومه اقتضت احتلال بلاده وادخال مدينتها وزخارفها وفنونها اليه . فجاء الرومان من كل صوب يعرضون فيه ازياءهم وزيناتهم ويتمتعون على مراعى منه بثرواتهم وخيراتهم وملاذم المحلة والمحرمة . فماذا يفعل هذا الشعب بازاء هذه المظاهر . انه ولا شك يلتمس الاقتداء بها والنسج على منوالها . ولذلك تفلح في نفسه مبادئه واراءه القديمة في الحياة تعلقاً بمبادئ وآراء جديدة لا توافق مزاجه . فينشأ في نفسه عن رغبته في الحياة الرومانية وعجزه عن البلوغ اليها اضطراب داخلي يجعل اعصابه متهبجة على الدوام . فيكثر فيه عدد التهييجين والمجانين والمصروعين مرضى وغير مرضى . ولكن هذا الهياج والانفعال انما هو مرض واي مرض . اذ به تتبدل اخلاق الشخص وتسوء فيتدرج من هوة الى هوة وربما بلغ اعماق الهاويات ولم ينتبه الى نفسه ولا راي حالته امرأ اداً . ولعل هذا اصح تعليل لحالة هذه المرأة المسكينة ودائيا الذين اشرت اليها . فعلى رؤوسنا نحن الرومانيين تقع تبعة هذه المفساد الاجتماعية ومنا يجب ان تكون اول تعزية واول كلمة حلوة توجه الى امثال هذه المرأة الساقطة المنبوذة من الارض والسماء (١)

(١) على هذا النسق كان كلام سنيكا الاديب لانه كان مشهوراً بالعمل والكلفة في خطبه وكتاباته . ولا غرابة في تحليله هذا التحليل هنا لانه اشتهر في كتابه « المجادلات » بوصف اخلاق عصره وصفاً لم يجار فيه احد ولا يوجد في غير كتاباته

ولما دخل سنيكا الأب وسنيكا الابن الى بيت مريم كانت مريم مستلقية في فراشها دون وعيٍ وبجانها حنة . وكان الترجمان اليهودي ينبع الشيخ والشاب مستغرباً جرأتهما على الدخول الى هذا البيت دون ان يخافا كلام الناس . ولكنه قال في نفسه انها غريبان والغريب لا يبالي بكلام الناس لجهلهم بحقيقة امره فضلاً عن ان ما رآه في اخلاق الشيخ وتأدبه ابعد كل ظن سيء فيه . واذا نكلك قمة الانسان العاقل باكليل الشيب وصفت نفسه من كدورات المادة واصبح على شفا القبر فهو يضع يده في افقر يد لامرأة فتطهرها بجزء مسها لها ولا تنتجس يده منها

اما الشيخ فمذاشرف على سرير مريم اخلس النظر الى ابنه ليرى تأثير منظر تلك المرأة الجميلة في نفس الشاب . فرائى لوسيوس بنظر الى تلك المرأة الغضة التي كانت كأنها على فراشها برج فضة بعينين متقدتين باحثتين . ولكن الاب كان يعلم ان الشاب الذي عاشر سيدات رومه الظريفات الجميلات وشهد بهاء كبيرات الرومانيات وبذخهن ودلالهن لا تروقه بعد ذلك قروية من امة ضعيفة منخطة . اذ لاتفاق الاذواق والتربية والاخلاق ابلغ تأثير في اتفاق القلوب . ولكن عند القلوب الحامية هذا النظر نظر شيخ شمع من الايام لا نظر شاب يتطلع الى جميع ضروب الجمال وافانين الرقة المختلفة التأثير والاجذاب في الجنس الانثوي

وكانت مريم راقدة في سريرها بعد التوبة التي اصابها ووجهها الناصع البياض منتفخ تحت شعرها الاشقر الجميل كانه ملطخ بالدماء من تأثير التوبة . وكانت احدى يديها الناعمتين البيضاءوين على صدرها تقبض بها على ثوبها الابيض الناصع بتشنج شديد ويدها الاخرى تقبض بها على خشب سريرها . وكانت اجفانها مطبقة الا انها كانت ترتجف . وصدرها العريض البارز يحقق خفقات منتظماً . اما سائر جسمها فقد كان يابساً كانه قطعة واحدة

فلما وقع عليها نظر الشيخ علم من حالتها هذه ان نوبتها لم تفارقها بعد . فاسرع اليها واخذ بيده الجليلة يدها البيضاء الناعمة ليحس نبضها

ففي هذا الحين فتحت مريم عينيها . وكانت زرقاوين نجلاوين (١) وفي اشفارها وطف (٢) كأنما هي نبال مغروسة في اجفانها . وكانت هذه الاجفان مكحولة كحلاً طبيعياً فكان لزرقه

(١) واسعتين (٢) عن المالبي « الوطف طول الاشفار وقمامها » وفي الحديث انه

« صلعم » كان في اشفاره وطف

عينها تحت سواد اجفانها منظر رائع يعاكس بعضه بعضاً ولكن يكمل بعضه بعضاً. ذلك لان الزرقة في عينها كانت تجعل لها نظراً لطيفاً ضعيفاً ولكن السواد في اجفانها كان يدها بقوة وحماسة غريبة . فالناظر اليها لا يتالك من الدهشة لاجتماع هذين النقيضين فيها

ولما فتحت مريم عينها نظرت بها على غير هدى الى ما حولها وهما ثائرتان منتفختان محمّرتان . واذا وقع نظرها على اشخاص غرباء في غرفتها وثبت كما بدفع دافع وابستوت جالسة في فراشها وقد جذبت يدها من يد الشيخ بقوة . ثم ضحكت ضحكة شديدة . ضحكة ألم واشمزاز واحنقار وصاحت باعلى صوتها - وانت ايضا ايها الشيخ القدر ؟

فلم يفهم الشيخ كلامها ولكن الترجمان اسرع فتقدم وهم بالكلام ليشرح لمريم سبب زيارة هذين الرجلين لها . فانت مريم كلامها بغضب شديد دون ان تسمع كلام الترجمان . وكانت حنة في اثناء ذلك تحاول تسكينها ونامتها

- وانت ايضا ايها الشيخ القدر ؟ فيجاء لك ولشيبك ... روماني ايضا ؟ .. قه قه قه .. شكراً لك ... قد كفاني ما رأيت به منكم ايها الرومان اللثام .. انني انا المرأة الساقطة الدينثة لا افعل ما تفعلونه ... انتم كبار عظام ولكن في نكت اليهود واخلاف الوعود ... قه قه قه .. جئتم تمدنوننا وتعلموننا النظام . فهلاً بدأتم بنفسكم ...

ثم استجمعت قواها ورفعت ذراعها في الهواء واغمضت جفניה كأنها تسبح في عالم غير هذا العالم وقالت متهقبة ويدها ممدودتان نحو الشيخ

- تعال .. تعال الي يا حبيبي الشيخ القدر .. تعال وامرغ جبهتك التسعينية في صدر اطهر من لحيتك ..

وكان قواها نفدت بعد هذا الكلام فاستلقت دون هدى علي فراشها وعادتها نوبتها في اشد حالاتها

لم يترجم الترجمان شيئاً من هذا الكلام لسنيكا وابنه ولذلك لم يفهما شيئاً منه . فسأله الشيخ ماذا تقول المرأة . فهم الترجمان ان يصنف له كلاماً من عنده واذا بقزم تقدم الجميع نحو فراش مريم وقال باللغة اللاتينية بشيء من النزع

- اظن انكم تحسون صنماً اذا تركتم هذه المرأة المسكينة وشأنها ايها الاخوان

فلما سمع الشيخ والشاب الكلام بلغتها من ذلك القزم التفتا اليه بكبرياء رومانية . وقال له لوسبوس ابن الشيخ

- وما شأنك انت هنا

فاجاب القزم بغضب

— شأني هنا ارفع من شأنك . نحن من وطن واحد وجنس واحد وانني لا نجل من
ان يقال ان الرومانيين يأتون ما تأتون الان في هذا المكان بجانب فراش امرأة ساقطة
مسكينة من التلذذ بمراى عذابها وشقاؤها . انني فرت من رومي لكي لا ارى امثال هذه
القسوة والاعمال تصدر عن « الرومانيين مدتي العالم » فانا الان باسم المدنية الرومانية التي
تدعوها وباسم الوطن الروماني والاسم الروماني ادعوك الى الخروج من هنا
وكان الشيخ عابساً في اثناء هذا الكلام . اما ابنه فابتسم واجاب
— لا شك عندك في اننا ندنس الاسم الروماني في وجودنا في هذا المكان . ولكن
انت ايها الروماني الشريف لماذا جئت الى هنا . لعلك جئت تصلي . . .

فاجاب القزم ولا ريب ان القاري قد ادرك انه شيشرون الذي تقدم ذكره
— جئت الى هنا لامر افضل من الصلاة عندي . وانني اقدر ان امس يدي بـ
هذه المرأة وتبقى يدي طاهرة اطهر من يدك

وكان الشيخ ملء هذا الخصام بين ابنه وذلك القزم او انه رأى الحق في جانبه في
ملاحظته . فقال لابنه . لوسبوس لا تجاوب . ثم التفت الى شيشرون وقال بسكينة العقلاء
— ما اسمك يا بني . فاجاب شيشرون . اسمي ابن الارض

فابتسم الشيخ وقال . كلنا ابناء الارض يا بني ولكني احب ان اعلم اسمك لانني مررت
بانني وجدت في مكان كهذا المكان رومانياً يقول ما نقول
فقال شيشرون وكان لا يزال في نزقه . وانت ما اسمك ياسيدي

فاجاب الشيخ ضاحكاً . اسمي سنيكا يا بني

فلا سمع شيشرون اسم « سنيكا » تراجع الى وراء مدهوشاً . فملح الشاب دهشته
فابتسم قليلاً . اما الشيخ فقال بجدة مطلقة

— لا نعتب عليك يا بني لانك لم تعرفنا . نعم انا سنيكا المعلم في زومه وهذا ابني
لوسبوس وقد جئنا الى هذه البلاد للسياحة فيها ترويحاً للنفس من عناء المعيشة في رومه
وجوهر المضطرب . ولما وصلنا الى مجدل سمعنا بخبر هذه المرأة وبلغنا الساعة سقوطها امام
بيتها بنوبة عصبية فجننا نفتقدها شفقة عليها ورغبة في مشاهدة اثر من اثار الشقاء البشري
في هذا الزمان

فلا تحقق القزم شيشرون ان الرجل الذي تقدم على اهانتة بمثل ذلك الكلام هو

سينكا المشهور اديب رومه الذي كان يقرأ كتاباته بلذة تحت نخلة بجانب بيت مريم كما ذكر لها ذلك في ما تقدم اسقط في يده وحار في امره . وبعد ان نلعم قليلاً تقدم باحترام من الشيخ الجليل وقال

— عفواً يا مولاي عن جرائي وغضبي . ومثلك ينفو عن مثلي . وقد اثري قولك انك لا تؤاخذني بما قلتُ وفعلتُ لاستحسانك قولي وفعلي . فان هذه الشهامة خليفة باديب الرومان وعظيم البيان . ثم التفت الى لوسيسوس ابن الشيخ وقال : وانت يا سيدي لست باقل شهامة من ابيك الكريم . ولا عجب في ان يكون هذا الشبل من هذا الاسد . وانني كمغرم بالادب والبيان اتنى ان تكون خليفته في رومه وسيد البلغاء والحكام فيها . فعمواً عن جرائي ووفاحتي

ثم التفت شيشرون الى الشيخ وقال . هل ياذن لي مولاي بان اطلعه على السبب الذي جعل هذه المرأة المسكينة في هذه الحالة . فاجاب الشيخ نعم انني احب الاطلاع عليه ولكن يجب علينا اولاً ان ننظر في مداواة علتها واذهاب آلامها

فالتفت شيشرون الى مريم وهي على فراشها وقال . اظنها استراحت الآن لانني لا ارى عوارض الألم والنوبة في جسمها كان نوبتها انتهت باستفراغها وسعها في غضبها وفي الواقع ان مريم كانت في هذا الحين راقدة براحة مهدوء في سريرها وقد ذهبت عن وجهها وجسمها دلائل الاضطراب التي كانت فيها

فدعا شيشرون الشيخ والشاب الى شجرة في الكرم خارج البيت قائلاً وهو يتسم — ان هواء هذا المكان ثقيل ردي فلنخرج يا سيدي الى تلك الشجرة فاني كثيراً ما جلست تحتها اقرا كتاباتك السامية

ولما صار الثلاثة تحت الشجرة اخذ شيشرون بقص على سنيكا وابنه قصة مريم قبل سقوطها ويصف له نفسها واحوالها ويسرد له كثيراً من الاحاديث التي حدثته بها وهما على انفراد . فاعجب الشيخ والشاب بحالة نفس مريم وافكارها . والتفت الشيخ الى ابنه وقال له : اما قلت لك يا لوسيسوس ان هذا كان نتيجة مبادئنا ومدنيتنا . ثم انتهى بشيشرون الكلام الى قصة يوليوس ومريم وكيف خدعها وهجرها بعد ان وعدها ان يعيش معها طول عمره معيشة شرف وكرامة . وانه يظهر ان مريم تحب يوليوس حباً شديداً فاصابتها هذه النوبة الشديدة بعد هجره اباه . قال شيشرون . وقد هجرها يا مولاي بحجة انه مدعو الى رومه لامر هام والحقيقة انه سافر الى اورشليم ليتزوج هناك بفتاة رومانية ذات مال طائل وقد كتمت هذا عن مريم

الفصل الخامس

﴿ كتاب وشاب ﴾

وفي صباح اليوم التالي كانت مريم جالسة تحت تينة في حديقتها ورأسها مسند الى بعدها تتأمل في الفضاء الواسع الذي امامها . وكان على وجهها مسحة من الاصفرار نشأت اما عن التوبة التي اصابتها امس واما عن اضطرابها وارقتها في الليلة السابقة وكانت مريم قد بكرت في ذلك الصباح بكور الغراب ولم تنبه حنه من نومها لتتبع بلذة التأمل والتفكير وحدها اذ لا يلد اصحاب المواجس والوساوس شيء كالانفراد والتفكير في معزل عن الناس . ولكن لم ينقض عليها نصف ساعة تحت التينة حتى ابصرت حنه مهرولة نحوها وفي يدها رقعة للكتابة . وكانت حنه في هذا الصباح اجمل من مريم لانها كانت قد نامت نومًا طويلاً هادئاً هذا اذا كان معنى الجمال نضرة الورود في الحدود . ولكن جمال مريم كان جمالاً خاصاً بها لا يدانيه جمال . فلقد كانت كوردة نيسان جميلة في ذبولها ونضرتها

ولما صارت حنه عند مريم مدت اليها يدها وناولتها الرق وهي تضحك وقالت :
اتظنين هذا الخط خط يوليوس

فلما سمعت مريم اسم يوليوس عبست وتناولت الرق دون اهتمام . وبعد ان القت نظرها عليه قالت غير مكترثة ليس هذا الخط خط هذا الكلب الروماني . فانه لو كتب لي لكتب بلغتنا لا باللغة الرومانية . فاعل احد هؤلاء الرومان الادنياء اراد المزاح فكتب هذا الكتاب . ولكن اين وجدته

فقالت حنه انني وجدته في نافذة غرفتك مطويًا وعليه حجر لثلا يطيره الهواء .
اتظنين انه من شيشرون

فقالت مريم وقد رفعت شفتيها بازدياء وامرت يدها على عينيها متنهدة . كلا فان شيشرون رأي امس في الحالة التي كنت فيها وهو يعلم ان قلبي لا يجب المزاح في مثل هذه الحالة . ما لنا ولهذا الكتاب ابتها العزيزة حنه . انك تعلمين ان من كان مثلاً يجد في طريقه كثيراً من امثال هذه الصغائر . وهي اذا كانت عند فاعليها شيئاً يدل

على المزاح والمداعبة فانها عندنا دليل على السخافة والصفار . اعطيني يا عزيزتي ردائي الثقيل فان في عزمي التنزه في الوادي القريب ليلي استبعاد شيئاً من قواي التي فقدتها أمس .

فدنت حنه من مريم واخذت رأسها بين ذراعيها باسمة ثم قبلته وقالت : الى هذا الحد تحببنة يا مريم

فرفعت مريم رأسها مدهوشة وقالت من تعنين
فقلت اني اعني الشاب الذي جزعت لفراقه أمس ذلك الجرح
فقهرت مريم وصاحت : تعنين بوليوس : فه فه ثم قالت انني احبه حي لهذا
الحجر الذي ابصق عليه . وبصقت على حجر كبير كان بجانبها . ثم مسحت جبينها
بيدها واردفنت قائلة : انظنين من كان مثلي يحب انظنين من كان مثله يحب . ان قلبي
كهذا الحجر الذي بصقت عليه . وفي بصقي عليه بصقت على جميع البشر . اذهبي يا حبيبتي
اذهي واتني بردائي واذا فرغت من إعداد الطعام وانتصف النهار ولم اعد فتغدي وحدك
فضحكت حنه وقالت تنزهي وانبسطي ابتها العزيزة فقد فاسبت أمس آلاماً
شديدة .

وبعد ربع ساعة كانت مريم سائرة في طريق الوادي مطرقة الى الارض .
وكأن الحديث الذي جرى بينها وبين حنه قد اعاد القوة الى نفسها بعد الضعف
والوهن الذي اصابها آنفاً . وهكذا حالات النفوس فان شيئاً صغيراً يشيرها ويقويها
وشئناً صغيراً يضعفها ويوهيها

وكانت مريم في هبوطها في الوادي تقف حيناً بعد حين عند الازهار البرية
وتقطف اجمالها . فجمعت منها ثلاث ضمات غرست احداها في شعرها واخرى في
صدرها وحملت الثالثة في يدها . وكان نسيم الصباح 'يميل الازهار والنباتات حولها .
فلو رآها الشعراء حينئذ لقالوا ان تلك الازهار كانت تنحني وتسجد لجمالها . او
انها كانت تنطرح نحوها لتحظى بنعمة الانضمام الى اخواتها المغروسات في شعرها
وصدرها .

ويظهر ان مريم كانت فاصدة بيتاً فائماً في ما وراء الوادي على اكمة تقابل الاكمة
القائم عليها بيتها . ولذلك كانت في طريقها تطيل النظر في جهة ذلك البيت لعلها ترى
احداً فيه . فانحدرت بين كروم العنب واشجار التين وما وقفت في طريقها الامرتين

لنقطف في المرة الاولى حبة عنب وفي الثانية ثمرة تين . وقد مصت الحبة ولفظتها اما
ثمرة التين فاكلت منها قطعة ثم رمتها . فكان ظاهراً ان مزاجها مضطرب في ذلك الصباح
وقابلتها للطعام معدومة

واذ توسط الوادي التفت الى رمانة كانت قد اعتادت الجلوس تحتها وحولها
الغنم والماعز والبقر ترعى فابصرت رجلاً مستلقياً على الارض وفي يده كتاب يقرأ فيه
ويده الاخرى على رأس غنمة كانت ترعى بجانبه وتركزت المرعى واخذت
تنظر اليه .

فقالَت مريم في نفسها هذا هو الراعي ثم حادت عن الطريق وقصدته لعل شيئاً من
اللبن ينفعها في ذلك الصباح ويرد إليها قواها
ويظهر ان الرجل لم يسمع صوت قدمي مريم او سمعه ولم يلتفت اليها . فلما صارت
بجانبه وقت وقالت وقد شككت في كونه راعي الغنم
— ابن الراعي

فرفع الرجل رأسه من كتابه وجلس ناظراً في وجه مريم . فدهش لاول وهلة ثم
تغلب على دهشته واجاب بلطف وادب : لست اعلم ايها السيدة المحترمة فلعله صعد الى
ما وراء الاكمة . هل تعلمين شيئاً منه

فاجابت مريم . اني اريد شيئاً من اللبن (الحليب) فقد ظمئت في طريقي ونعبت
فلعل اللبن يرد الي قوتي

وكان الرجل في خلال ذلك يتأمل في مريم ومريم تمن النظر فيه . ويظهر ان نظر
كل واحد منهما في وجه الآخر قد انتج نتيجتين متناقضتين . فان لوائح وجه مريم
اتخذت بعد ذلك علائم الاستخفاف والهز . ولوائح وجه الرجل اتخذت علائم الدهشة
والاحتشام .

وفي الحقيقة ان شخصية كل منهما كانت تدعو الى ذلك . فان الرجل لما رأى نفسه
امام سيدة كبيرة الهامة بارعة الجمال انيقة الملبس جريئة في الكلام حادة النظر تصاغر
لديها واحتشم . وهي لما رأت نفسها امام شاب في نحو الثانية والعشرين صغير الجسم حقير
المنظر تعالت وشمخت

ولما سمع الشاب انها تطالب لبناً القى كتابه على الارض ونهض وهو يقول . اذا سمحت
لي السيدة خدمتها بنفسي وكفيتني عنها انتظر الراعي

ثم تناول وعاء من نغار كان بجانبه بين امتعة الراعي والمرع الى بقرة غلب منها شيئاً في الوعاء ودفعه الى مريم

فاثرت في مريم هذه العناية فتناولت الوعاء شاكرة ثم انزوت عنه واخذت تشرب اللبن . ولما انزوت ابادته الى الارض وقالت . هذه الرمانة رمانتي وطالما جلست تحتها اسمع نشيد البلابل والحمام واصوات مزامير الرعاة من بعيد في هذا الوادي . ومنذ اسبوع كنت جالسة هنا في مكان هذا الكتاب اتأمل في الارض والسماء واذا ببلبل قد وقف على الرمانة فوقى واخذ بفرد تغريداً لم اطرب من شيء في حياتي كطيرى منه . ولم يكن يبنى وبينه من المسافة الا طول انسان . ها . اسمع فاني اسمع صوت البلابل ولم تكلم مريم تتم عبارتها حتى رات بلبلًا قادمًا من بعيد يقصد الرمانة . فاشرفت اسرتها وضحك واومأت الى الشاب ان يسكت ويجلس لئلا يطير البلبل ثم جلست متأنية وجلس الشاب والتزما السكون

وكان البلبل قد وقع على الرمانة ورفيق له وقع على تينة تجاهها . واخذ الاثنان ينشدان ويتجاوبان باصوات ثمير الاحزان والاشجان . فكانت مريم تضحك ملء فيها ونفسها الصبائية تلهي بمنظرهما ونشيدهما كما تلهي نفوس الموسيقيين بأشجى الالحان الموسيقية . ولا عجب في ذلك فان نفسها كانت قد ربت في الخلاء بين الاشياء والكائنات الطبيعية وألفتها . ويظهر ان بلبل الرمانة اقتنع في نشيده بلبل التينة ان ياتي اليه فطار ووقع على الرمانة بجانب رفيقه واخذ الاثنان يتناشدان ويتلاعبان ويتلاعبان . وكان الشاب في تلك المدة اشد اشتغالا بمريم منه بالبلبلين فكان ينظر الى البلبلين ظاهراً ولكنه كان ينظر الى مريم باطنًا . فكان نفسه كانت مشغولة عن بلابل الرمانة ببلابلها التي تارت عند مشاهدتها مريم . فاختلس النظر الى مريم وهي شاخصة في الرمانة فراى ان لوانح وجهها قد اخذت تتغير . وراى ان قد حل في نفسه التفكير محل الضحك والخفة واتخذ هيئة الحزن والكتابة الشديدة

وبعد عشر ثوانى رأى دمعين تتحدردان من عينيها على وجنتيها . فكانت هاتان الدمعتان ناراً احقرت قلبه ودهش لها دهشة ما بعدها دهشة فاخذ يقول في نفسه من عسى ان تكون هذه المرأة الجميلة الانيقة الجريئة ؟ وكيف انفردت في هذا الوادي ؟ وما سبب ضحكها وخفتها منذ حين وبكائها الآن ؟ العلمها بمجنونة ؟ كلا فان كل شيء في عينيها وكلامها وملابسها يدل على عقلها . فما سر هذه المرأة الغريبة

ولم ينته الشاب في تفكيره الى هذا الكلام حتى صاح صائح من وراء الرمانة :
يا قديس يوسف . ماذا تفعل عندك
فدعر البلبان لهذا الصوت وطارا والثفت الشاب ومريم الى الجهة التي ورد
منها الصوت .

ثم سمحت مريم دموعها ونهضت وسارت في طريقها دون ان تلتقي سلاماً على الشاب .
فشمعها الشاب بنظر حزين كئيب وقد زادت دهشته من امرها
وكان القادم راعي المواشي وقد عاد من حاجة ذهب لفضائها . فلما وصل الى الرمانة
قهقه وقال : ما شاء الله ايها النبي يوسف كنت تجالس الكتب من قبل اما الآن
فاصبحت تجالس النساء

ثم لم يممه في الجواب فقال : وهل تعلم ايها القديس اية امرأة كانت جليستك
فخلق الشاب وقال اتعرف هذه السيدة
فقال الراعي : تقول هذه السيدة ؟ ؟ قه قه قه . . انك تسميها سيدة ولكنها ايها
القديس ليست بسيدة . . بل هي ليست بامرأة

فزاد الشاب حلقه وقال : ما هذا المزاح البارد يا متى . اخبرني ما مرادك
فقال الراعي : افول لك ان هذه الجثة التي كانت جالسة بجانبك ليست بسيدة
ولا امرأة

فقال الشاب متبهكاً : لعلك تزعم يا ابله انها رجل
فقال كلا كلا يا قديس . وانما هي شيطان . . . استغفر الله . بل هي شيطان يسكن
فيه سبعة شياطين . . يارب ارحم . وكيف تركتها تدخل بين غنمي وبقرتي . هل
لمست بعضها ؟

فقال الشاب كلا
فقال الراعي الحمد لله . اشكر الله

فقال الشاب ولكنها شربت من لبن حلبته انا من تلك البقرة
فصاح الراعي . يارب ارحم غداً تموت البقرة . لا ريب ان احد الشياطين السبعة
قد دخل فيها

ثم اسرع الراعي الى البقرة واخذ بفحص وجهها وثديها وبطنها وظهورها ولوائح الاهتمام
بادية في وجهه

وكان الشاب في اثناء ذلك يتأمل في كلام الراعي مستغرباً . فلحق به وقال
 — اخبرني الآن بهدوء ما مرادك من كلامك ومن تكون هذه المرأة
 فقال الراعي وقد ابتسم لاطمئنانه عن سلامة بقرته : انني اخبرك عن حقيقة بها بكلمة
 واحدة فيكفي ان اقول لك انها (مريم المجدلية)
 فزاد استغراب الشاب وقال . انت تعلم اني لم افد على هذه القرية الا منذ يومين
 فاني لي ان اعرف هذه المرأة لجرد ذكرك اسمها
 فاجلس الراعي الشاب على العشب واقبل عليه يخبره همساً في اذنه خبر مريم المجدلية .
 وكان الشاب تارة يصفر وطوراً يحمر في اثناء حديث الراعي . ولما اتى الراعي على
 حديثه نهض الشاب وقد تباطى كتابه وقال وقد اظهر عدم المبالاة . انني مودعك الآن
 يا متى الى الملتقى . ثم سار وراء مريم وهو يقول في نفسه . واسفاه واضيعتاه لنفسك
 ولجسمك يا مريم

الفصل السادس

﴿ ضربة اخرى ﴾

ويظهر ان مريم اختصرت نزهتها بعد هذه الحادثة وعدلت عن المسير الى البيت
 الذي اشترنا اليه آنفاً فلما عادت الى منزلها كانت عيناها حمراوين منتفختين من البكاء .
 فدخلت الى المطبخ وغسلت وجهها بماء بارد فاستقبلتها حنة ضاحكة وقالت . قد قدم
 شيشرون في غيابك وترجم لي الرسالة التي وجدتها في النافذة وهذه ترجمتها . ولكن هل
 تعلمين كانتها . فاجابت مريم دون اكتراث والضحك بادٍ في وجهها . كلا لا اعلم . فقالت
 حنة ان كاتبها هو الشيخ الروماني العظيم الذي زارك امس مع ابنه
 فدهشت مريم وقالت باهتمام : سنيكا ؟ واين ترجمتها
 ثم تناولت الرق وقرأت فيه الترجمة تحت الاصل وهذا نصها
 « لقد زار هذا البيت روماني وشاهد فيه الانسانية المعذبة . وقد رام ان يجعل لزيارته
 هذه ذكراً في نفس المرأة المسكينة النعيسة التي تقيم فيه . فلو قدم لها هدية ثمينة لتبقي لديها

تذكراً لزيارته لكان في هديته امانة له ولها فضلاً عن دلالتها على اشتراكه في الرضى عن تعاستها وتشجيعها عليها . . . وعنده ان هذا الكتاب خير هدية منه اليها « مررت في مجدل تحت سماء زقاء فوق ارض خضراء فرائيت وردة فيحاء في مزبلة

« مررت في وادي من زجاج متجطم بين بقايا مواد قديمة فرائيت فيه ماسة جميلة ساطعة كالشمس ولكنها ملوثة مهمله
« ابتها الوردة ابتها الماسة . لم 'تخلق لتكوني حيثما انت . اهرابي اهرابي من مكانك
يظهر للناس جمالك . نفسك من جوهر ولكن جسمك من وحل . اخرجي اخرجي لتطهير نفسك وجسمك

« كل شيء طاهر حولك في الارض والسماء . كل شيء في الطبيعة مطمئن محبوب محمود . ازهار البر ترفع راسها بعزة وكبرياء مفاخرة بجالها وعبيرها . طيور البر تسبح خفيفة نشيطة وتتداعب على الاغصان مسرورة بالفتها . البشر حولك يلعبون ويشقون ويضنون واحمال المصوم تنقل نفوسهم ولكنهم معززون بانهم يعيشون وهم اهل لاحترام بعضهم بعضاً . وانت انت ابتها الوردة والماسة مع كونك اجل واظرف منهم تعيشين مضطربة منفردة ذليلة متبوذة مكروهة . فلما قرأت مريم هذا الكتاب صرفت وجهها عن حنه لثلاث ترى عينها ثم وضعت الكتاب في ثوبها ودخلت الى غرفتها

ولما صارت منفردة في غرفتها اغلقت الباب ووضعت كفيها على وجهها لكنها نروم حبس دموعها وانطرحت على فراشها . وبعد ان بكت برهة عادت فجلسات واخرجت الكتاب ووقفت فيه عند هذه العبارة

« طيور الجو تسبح خفيفة نشيطة وتتداعب على الاغصان مسرورة بالفتها »

فيا للصدفة والاتفاق الغريب . ان مريم بكت تحت الرمانة من منظر زوج من البلابل يتداعب ويتآلف امامها بينما هي فريدة في الدنيا كلها . وهوذا الاديبي سنيكا يلطم وجهها في كتابه بهذا المثل صدفة واتفاقاً وبكيتها مرة اخرى من اجله

ولما استبطأت حنه مريم دخلت الى غرفتها فسمعت من الباب صوتها فهرعت اليها لان المسكينة كانت حضرتها نوبتها . وبعد حين اخذت مريم سيفاً اثناء التوبة تصرخ صراخ الالم والعذاب . فاخذت حنه تفك ثيابها عنها وتولى مداراتها . وبينما كانت مريم تنفض من الالم وتصرخ وحده تعني بها وتنظر الى الباب والى النافذة

لعلها ترى شيشرون قادمًا لمساعدتها واذا برأس قد اطل من النافذة ونظر في الجهة التي كان صراخ مريم وارداً منها . واذا وقعت عيناه على عيني حنه عاد فجأة واخفى وراء النافذة

فاسرعت حنه الى النافذة فراءت منها شاباً يسرع الخطى ويبتعد عنها فاسرعت الى الباب فخرجت منه فابصرت على الطريق امامها شاباً في زهرة الشباب وفي يده كتاب . فاستوقفته فوقف ولكن يظهر ان جميع دم الشاب انصرف الى وجهه حين استوقفته حنه فاصبح قرمزي اللون الا انه كان مع شدة تأثره يظهر ثبات الجاش والسكينة

انا نحكم على عيوننا فنجعلها تخفي ما زوم اخفاءه . وعلى اجسامنا فنجعلها تسكن ودخلها مضطرب تأثر كبير كان . ولكننا لا نستطيع التساط على دمنا فهو يغور او يغور بالرغم منا ويدل على بواطننا

فسألت حنه ذلك الشاب متلطفة ان ينفصل ويدخل معها الى المنزل لمساعدتها على معالجة ابنة عمها المتأللة لانهما منفردتان في البيت وهي تخاف وحدها . فاسرع الشاب واجابها الى ما طلبت وهو في الحقيقة مسرور بهذه المساعدة

وبعد نصف ساعة فتحت مريم عينيها بهدوء فوقعتا على هذا الشاب وكتابه في يده . فتولأنا دهشة شديدة . اما الشاب فابتسم لها متلطفاً وقال : يظهر ان زهرتك في الوادي قد اتعبتك ايها السيدة فكيف حالك الآن

فنظرت مريم في وجهه فتحصه جيداً واجابت : حالي كما ترى فقال الشاب اني منذ فارقني تحت الرمانة رايت في وجهك انك متأللة فهل تشكين مرضاً

فاجابت مريم وقد ثنأبت دلالة على ضجرتها من حديثه . انني اشكو ما ترى فقال الشاب . انني اراك في خيز واسال دوامه لحضرتك . وما هذا الا نتيجة التعب وشدة احساس السيدات . ثم قال وقد اشتدت حمرة وجنتيه : اما انا فاني اتيه في هذه الارض وكنائي في يدي كما ترين . ولا بلذ لي شيء كالسياحة والقراءة . فبسياحة اقوي جسدي وبالقراءة اقوي نفسي . وقد مررت الان اتفاقاً من هنا فسمعت صوت الآمك ثم ابصرت ابنة عمك فسالني ان ادخل لمساعدتها على العناية بك فدخلت مسروراً بان اقوم بخدمة لها ولك

فتأبّت مريم مرة اخرى واجابت شكراً لك ثم غلب عليها التناؤب لضجرتها
فوضت كفها على فمها وتأبّت ايضاً . وبعد ذلك اغمضت عينيها وابتقتها مغمضتين
كأنها تنظر بهما في داخلها

فاغتنم الشاب هذه الفرصة واخذ يتأمل في وجه مريم . فن رأى عينية
وهو ينظر بهما الى هذه الحسناء رأى أجمل سداجة ودهشة ولذة اجتمعت تحت
جفني انسان . وانما كانت دهشة عينية حينئذٍ كدهشة ولد رأى شيئاً لم ير مثله
في حياته

وكأنّ الشاب شعر بان اغماض مريم عينيها بمثابة دعوة له ان ينصرف .
فلم يجد من الادب وسلامة الذوق ان يطيل الاقامة في ذلك المنزل الذي دخل
اليه وجلاً خائفاً . ومن جهة اخرى فانه كان يتمنى ان يقع له فيه ما يمكنه من
الاقامة فيه حيناً ريثما تنتبه مريم لرغبته في محادثتها والاطلاع على حالة نفسها
وبينا هو يفكر بذلك وقد همّ بالانصراف واذا بجذعه قد دخلت وفي يدها
رسالة . فنادت مريم ففتحت مريم عينيها . فاومأت اليها حنه ان تتبعها . فنهضت
مريم ضعيفة خائرة القوى . ولما صارت عند حنه في الغرفة الثانية دفعت اليها حنه
الرسالة فقرأتها مريم وعبست . ثم فكرت قليلاً . ثم أمرت يدها على جبينها
وقالت ولكنني مريضة يارباه . ثم فكرت حيناً . وبعد تردها هذا ذهبت الى
خزانة ملابسها وتناولت منها ثوباً ناصع البياض مزيناً افر زينة ولعله كان أجمل
اثوابها . ثم قصدت الماء فغسلت وجهها ورتبت شعرها ولبست ثوبها ودنت من
ضمة زهر من القرنفل كانت في النافذة فقطفت منها ثلاثاً واحدة حمراء غرستها
في شعرها واثنين واحدة بيضاء وواحدة وردية علقتهما في صدرها فوق قلبها .
ثم خرجت من المنزل كأنها سائرة الى مأتم لا الى نزهة او ملهى لفرط الكآبة
التي كانت بادية في وجهها

اما الشاب فانه لما رآها قد انصرفت دون ان تلتفت اليه لدغت قلبه عقارب الغضب لاحتقارها آياه الى هذا الحد . فخرج من المنزل دون ان يحیی رفيقتها حنه

الفصل السابع

انقضاء الصاعقة

وقد خرج الشاب من المنزل ونزل الائمة من الجهة المؤدية الى قرية مجدل وهي الجهة التي تقابل الجهة التي جاء منها من تحت الرمانة . وكان في اثنا مسيره يقول في نفسه :

ما كان ينقصني الا احتقار هذه المرأة الساقطة . لقد سارت دون سلام ولا كلام كاني احد خدمها او كآني تطلعت عليها في منزلها تطفلاً . ماشاء الله ماشاء الله . هذه اخلاق امثال هؤلاء النساء الساقطات الغيبات . حقاً اني اخطأت خطأ عظيماً بلحاقى بها الى منزلها وبتدنيسي قديمي بدخولي اليه

تلك كانت هواجسه في نزوله نحو القرية . الا ان للمرأة الجميلة جاذباً قوته أشد من قوة الاحتقار والازدراء . فانه لما فرغ غضبه من احتقارها آياه رجع الى نفسه وقال : على من اعتب ؟ أعلى امرأة شقية ساقطة لا قيمة عندها في الارض لغير المال والجمال . وماذا انتظر من نفس معذبة تسمي وتصبح وهي في حالة الجنون والهياج والخوف من الغد ؟ اني انا المجنون جنوناً فوق جنونها .

فيجب علي ان اشفق عليها وارفق بمالها بدل ان يسوئي احتقارها والعادة ان بين (الشفقة) و (الميل) المسافة قرية جلدًا . فتدرج الشاب الى قوله : ولكن لماذا تزيّنت بهذه الزينة قبل انطلاقتها من منزلها . انها منذ حبس كانت تنزهه فما خرجت اذا الآن الى النزهة . ولو كان خروجها الى النزهة لما عنيت تلك العناية بتزيين جسمها ووجهها . فلماذا خرجت اذا . وما هذه الرسالة

التي كانت في يد رفيقتها واستدعتها من اجلها الى الغرفة الأخرى
 فهنا خطرت للشاب خواطر غيّرت عواطفه من جهة المرأة فوقف برهة
 يفكر . ثم تغلب على نفسه واستمر في سيره . ولكنه ما خطا خطوتين حتى
 عاد فوقف . وكان في وقوفه مبهوتاً ينظر الى القرية المنبسطة تحته ولكنه في
 الحقيقة كان لا ينظر الى شيء . ويظهر ان الجاذب الذي كان يجذبه الى وراءه
 تغلب عليه فالتفت نحو المنزل فوجد حنه في النافذة ورأسها مسند الى يدها .
 فقال في نفسه ان عدت' الآن من حيث أتيت رأيتني هذه المرأة اتبع رفيقتها .
 قال هذا ثم أظهر انه سائر من جهة غير الجهة التي سارت مريم فيها . ولما غاب
 عن المنزل عطف نحو الطريق التي رأى ان مريم سلكتها

وكانت هذه الطريق نفس الطريق التي سلكتها مريم في الصباح وهي
 المؤدية الى الوادي حيث اجتمع الشاب بمريم تحت الرمانة . فاسرع الشاب
 يقتني اثر مريم فراها من بعيد قد هبطت في الوادي . فنادى عن تلك الطريق
 وقصد الوادي من طريق غير مطروقة . فما كاد يشرف على الوادي من اكمة
 فوقه حتى رأى مريم صعدت من الجهة المقابلة ودخلت بيتاً كان مبنياً على الجانب الآخر
 فارتعد الشاب ووقف يتأمل

وبعد وقوفه حيناً انحدر الى الوادي فرّ من تحت الرمانة حيث لقيته مريم
 في الصباح وسمعت معه تغريد البلابل ثم اجتاز الوادي وصعد من الجانب
 الآخر في الطريق المؤدية الى ذلك البيت

وكان الشاب في اثناء صعوده يشعر بشيء لم يشعر به في حياته كلها . وقد
 وقف مرتين في الطريق وعزم على الرجوع الا ان ذلك الشيء كان يدفعه الى
 الامام . فلما صار على مستوى البيت تقدم نحوه بقلب خافق واطراف باردة .
 ولكنه ما وصل الى نافذته حتى ارتعد واصطكت ركبته وتبلل جبينه بالعرق .

ذلك انه سمع في داخله من وراء النافذة ما علم منه كبح البصر السبب الهائل الذي من أجله زارت تلك المرأة الشقية ذلك البيت

فهمّ الشاب بان يعدو مسرعاً ويعود عن ذلك البيت اللعين . ثم تجلد وسار سيراً اعتيادياً . فطرق اذنه صوت ما كان في الداخل من احتكاك الكؤوس وهتاف السرور وقهقهة البطر وغناء طَبَّقَ الغرفة . وقد سمع جيداً صوت مريم يغني الغناء التالي مقروناً بصوتي رجلين ايضاً . وهذه ترجمة ذلك الغناء

لماذا أشرقت الشمس في هذا اليوم
اغربي اغربي يا شقية نحن نطلب الليل
يا ليل . يا ليل . تكفيك شمس بنت الكروم
ووجه الحبيبة الخالي من أثر الهوموم

وهنا كان الشاب قد ابتعد عن البيت في مسيره ولم يعد يسمع الا غناء مريم بصوت رفيع يرن في اذنيه دون ان يفهم الكلام . فلما غاب عن البيت في منحدر قريب قصد الى شجرة وجلس تحتها مضطرباً هالع الفؤاد وقد اخذ يمسح بكمه العرق الذي كان يتصبب من وجهه

ثم أخذ رأسه بين يديه وشرح يحلم . فتذكر ملتقاه بهذه المرأة تحت الرمانة وكيف احترمها واکرمها . وكيف رآها في البيت في حالة الضعف والكآبة . وكيف يراها الآن في حالة البطر واللهو . ثم تذكر السداجة الصبانية اللطيفة التي رآها في عينيها وجمالها الساحر الذي صنعه الخالق ليكون دليلاً على قدرته وكماله تعالى لا ليلقى مدساً في المزابيل — تذكر كل ذلك فضاك صدره وخار عزمه وحار فيما يفعل . أيفرّ من ذلك البيت والوادي والقرية كلها ابتعاداً عن آثار الشقاء البشري وهرباً من رؤية هذه الشقية مرة أخرى ؟ أم يهجم على البيت ويدخل على اولئك الادنيا اللثام فيبصق في وجوههم ويصبح بتلك المرأة ان

تخرج من مكان يندسها وتدسه وتهين فيه في داخلها نفسها الخالدة الابدية التي انعم الله عليها بها لتصونها وتؤديها وتقدسها

مسكين هذا الشاب . انه كان يظن ان غضبه وجزعه واصطكاك ركبتيه وتصيب العرق من جبينه — كلها ناشئة عن شفقتة على مريم المسكينة . وما درى ان سببها كان دخول شيطان منها الى نفسه . ولو كان صاحبه الراعي هناك لقال له (يارب ارحم يا قديس يوسف ان احد شياطينها السبعة دخل فيك)

وما هو هذا الشيطان ؟ ان القاري يعرفه دون ان نصفه . هو الروح الخبيثة الطيبة التي تصيب النفوس الحساسة كما يصيب الكرى الجفون . هو الداء الذي يتسرب الى القلب والنفس والعقل تسرب الكبر بانية دون سلك فيستولي عليها دون نزاع ولا دفاع . هو فردوس الارض وجحيمها . لذتها وألمها . خيرها وشرها . نورها وظلامها . هو (الحب الفجائي) الذي يسميه كتّاب الافرنج ، ضربة الصاعقة ، وهم ينكرونه في غير الروايات . ولكن الاسباب نهى المسببات لما رأى الشاب مريم تحت الرمانة اعجب بحماها وامتناق قوامها وتناسب اعضائها وتأنق لباسها . فاحتشم لديها احتشامه لدى سيدة كريمة احترامها فرض على الرجل . ولما علم من الراعي بحقيقة حالها اشفق عليها . ولما دخل الى منزلها بدعوة من اختها لمساعدتها على معالجة مريم في نوبتها ورأى ذلك الجمال الغض والجسم البلوري ملقى بحقارة وضعف على فراش الالم والشقاء زاد ميله اليها والى اغاثتها وانهاضها من كبوتها . وخيل له انه من الواجب عليه هدايتها الى الصراط القويم . ولكنه لما رآها تتزين وتبرج وتخرج من منزلها دون ان تلتفت اليه . ثم رآها تدخل البيت الذي تبعها اليه وسمع غنائها مع بضعة من الشباب وبطرها بينهم بعد كآبتها الماضية — عرته حينئذ الدهشة اولاً والغيرة ثانياً . وليس شيء كالغيرة يُذكر نار الحب ويلقي صاعقته في القلب

فيا ايها القديس يوسف . قبل ان تطلب طريقة لاتقاذ هذه المرأة الشقية
اطلب طريقة لاتقاذ نفسك . لانك كنت كالفراس الذي يحوم في الظلام
حول المصباح ويلقي نفسه عليه فيحترق

الفصل الثامن

اول لقاء

وفي اليوم التالي بكر الشاب يوسف الى الوادي وجلس تحت الرمانة يقرأ
كتابه . وما كان في الحقيقة يقرأ ولكنه كان يتأهى منتظراً مرور مريم هناك .
وكان يوسف في ذلك الصباح اصفر اللون منتفخ العينين خائر القوى كأنه لم
يرقد الليل كله . الا انه كان في عينيه مع ضعفه هذا برق غريب هو اثر الصاعقة
التي انقضت أمس في نفسه على نفسه . فكان هذا الشيء الجديد الذي اصابه
تسلط على قواه فبث فيها الحياة مع ضعفها ووهنها وخلقتها خلقاً جديداً
وفي كل دقيقة كان يوسف يرفع رأسه من الكتاب ويسرح نظره في ما
حوله لعله يرى مريم . وكلما سمع حفيف ورق الشجر او صوت تنقل المواشي
في العشب رفع رأسه وصار كله اعيناً ترى . الا انه ما كان يجد ضالته ولا
يقف لها على اثر . فكان يعود الى كتابه متهدأ

ولما كاد ينتصف النهار سئم يوسف الانتظار فنهض بضجر وغضب وسار
في طريقه يقصد حوالى بيت مريم لعله يراها قادمة او ذاهبة من طريق
اخرى . فلقى الراعي قادماً بغنمه نحو الوادي وهو يحدوها بغناء زمماره غناءً محزناً
تردد صده في الوادي فتجاوبه الطيور بتغريدها والاشجار بحفيفها . فلما أبصر
الراعي صاحبه يوسف من بعيد صاح به

الى ابن تمضي يا قديس هل تفتش على (سيدتك)

فسلم يوسف على الراعي تسليماً كان الضجر واشتغال الببال ظاهرين فيه .
فقال له الراعي . اني اراك اصفر الوجه فماذا اصابك من أمس الى اليوم . هل
اقلقت . سيدتك . احلامك في الليل . ثم ضحك الراعي وقال . اظن انك
بعد حين ستلقي كتابك هذا من يدك وتقيم في بلدنا على الدوام . اذهب
يا قديس وتعذب مع الشياطين اما انا فلا أبيعك هذه الزهرة البيضاء الصفراء
بجميع جيلات اوروشليم والمجدل

قال ذلك ثم قطف زهرة من زهر المرجان كانت بجانبه وغرسها في شعره
وسار ينفخ بزمارة وغنمه تحيط به كأنه ملك في مملكته

فوقف يوسف حيناً يتأمل في هذا الراعي وفراغ باله وقناعته وعيشه الساذج
النقي بين الاشجار والازهار في وسط البرية بعيداً عن كل ما يثير النفس ويقلقها .
وقابل بين نفس الراعي الراضية ونفسه المائرة حينئذ . فهم ان يعود الى
ما بين غنم الراعي واشجاره وازهاره وهدوء الطبيعة السائد في نفسه وفي ما حوله من
الكائنات . ولكن المسكين كان يجهل ان نفوس البشر لم تصنع كلها بقالب واحد
ففيها ما من طبعه الرضى والسكينة الى الاعتيادي المألوف والمشي على الارض مشياً
مقروناً بسلامة دائمة . وفيها ما من طبعه الطمع في ما وراء الاعتيادي المألوف
والتحليق في جو الاوهام والاحلام فوق موائق البشر وعاداتهم ومطالبهم المادية
وان كان في هذا التحليق سقوطها احياناً من عل الى أسفل

وما كاد يوسف يخطو خطوتين مبتعداً عن الراعي حتى سمع صراخ الراعي .

يا قديس يا قديس

فالتفت يوسف فقال الراعي بأعلى صوته . انظر اليها فانها تفتش عليك بينما

انت تفتش عليها . ما هذه الساعة السوداء يا رباها

ثم تناول الراعي عصاه وهجم بها على غنمه يدفعها بها من الطريق الى جوف الوادي ويصلي بصوت مسموع الصلاة التي تطرد الشياطين
فقد يوسف بصره نحو الجانب الثاني من الوادي فابصر مريم هابطة من جهة البيت الى الوادي تقصد العودة الى منزلها على ما يظهر . فمشى قلبه في صدره حين رآها ماشية في طريق تنتهي اليه . وأخذ يتلخّص بتطف ازهار البرية ليتمكن ان ينتظرها وتلحق به . اما الراعي فكان مشغولاً بدفع غنمه من طريقه والفرار من مريم لئلا يتعلق بعض شياطينها بمواشيه فتزديها

وكانت مريم في ثوبها الذي لبسته أمس حين كان يوسف في منزلها . الا ان زهور القرنفل التي كانت قد قطعتها وعلقتها بشعرها وصدرها كانت قد ذبلت و أسفاه ولذلك القتها . ومن يعلم كم زهرة جددت في شعرها وصدرها من ظهر أمس الى ظهر اليوم ؟ ولكن اذا كان ذلك مجهولاً فقد كان معلوماً ظاهراً أن زهرة جمال مريم وورد خدودها قد ذبلت بين أمس واليوم ذبولاً يتيماً . فقد كان لونها ضارباً الى الصفرة والكآبة بادية في كل وجهها . فمن رآها اليوم في هذه الحالة وسمع أمس قهقهتها وغناها بطرها من وراء النافذة لا يظن ان المرأتين هما واحدة .

وكان يوسف كلما قطف زهرة نبض قلبه نبضة لظنه ان مريم قد وصلت اليه . فلما سمع وقع خطواتها وراء التفت وهو يكاد يمتدح لصعود دمه الى رأسه . ولما وقعت عينه على عينيها لم يجد كلمة يقولها فاشار اليها براسه مسلماً . اما مريم فوقفت لانها على ما يظهر كانت متعبة ثم قالت له بلهجة عدم المبالاة التي ألفها عندها

— ماذا تفعل هنا ألا تزال تغذي نفسك وجسدك

فازداد اضطراب يوسف لهذا التهمك منها وهم ان يجيبها بجواب هائل

حضره على لسانه ولكنه ملك عنان نفسه وقال وهو يرتجف ويخفي غضبه مخففاً جوابه

— قد اكون ممن يقوون اجسامهم ونفوسهم بالرياضة في الحلاء ولكن لا شك في ان جنابك ممن يمتنون نفوسهم واجسادهم
فرفعت مريم رأسها وشخصت اليه وقد دهشتها هذه الالهجة التي نطق بها يوسف كأنه ذو سلطة عليها . ثم غلب لديها الضحك على الدهشة مع كآبتها وضجرها في ذلك الصباح فضحكت وقالت

— انك اذا استمررت تغضب عليّ وتسيء بكلامك اليّ ايها السيد فانك تمنعني من الاستراحة هنا فاني تعبت من نزول الوادي واريد الجلوس هنيهة طلباً للراحة

فسكت يوسف ولم يجب . جلست مريم على بساط العشب والزهر وقد تنهدت تنهد الراحة ثم قالت مبتسمة :

— حقاً ان التنزه في الحلاء جميل جداً . فاني نهضت في هذا الصباح باكراً فهبطت في هذا الوادي ومررت تحت الرمانة لعلّي أراك ثم أمعنت في السير فاجتزت الوادي الى الجانب الآخر وطففت الآكام . . .

فهنأ لم يستطع يوسف صبراً لما كان يعلمه من كذب كلامها فقطع حديثها وقال بكل بلادة دون ان يرفع رأسه من الارض وهو يتشاغل بتطف الازهار — حقاً ان هذا النهار جميل الا أن الشمس محجوبة وراء غيمة سوداء قدرة فسكت مريم لرؤيتها ان خشونة الشاب وسكينته هذه ورائها ما ورائها .
فخلّ لديها التأمل محل الخفة والاستخفاف . وأخذت تتساءل ما شأن هذا الشاب الغريب الذي يغضب لسوء ظنه بها . وما الداعي الى غضبه اذا كان لا يهمه أمرها . فسألته

— ما اسمك ايها الشاب الطريف

فضحك يوسف وقال اسمي متى . فقالت هل انت من مجدل فاني لم أرك الا أمس . فضحك وقال : انا من مجدل ومن كل بلد لان وطني الارض بتمامها . فضحكت مريم وقالت انا اهنتك بهذا ولكن أين تقيم وما هي صناعتك . فقال لا اقيم في مكان ولا صناعة لي . فقالت مريم بشيء من الدلال والتلطف . انك مازح . فسكت يوسف

ولم تمر عشر ثوان على سكوت يوسف حتى ظهر في الطريق شاب يمشي الهويناء فلما أبصرته مريم صاحت هذا شيشرون . فبرد الدم في عروق يوسف واقشعر بدنه فرفع رأسه فابصر شبعا قادمًا فتناول كتابه من الارض دون ان يعين النظر في الشخص القادم أو يتبينه ثم ترك قطف الازهار وتأبط كتابه وسار موعلاً في الحقل دون ان يحيتي مريم أو يلقي نظره نحوها

فدهشت مريم أولاً ثم ضحكت وأخذت تنادي يوسف . فلم يلتفت يوسف اليها . فأخذت مريم تقهقه وتناديه ويوسف مضطرب مرتجف يسير على غير هدى دون ان يلوي على شيء . وبعد حين مرّ الشخص القادم في الطريق امامها دون ان يلتفت نحوها ايضاً فادته مريم : شيشرون شيشرون . فلم يلتفت شيشرون واستمر سائراً . فنهضت حينئذ مريم غضبي ولحقت بشيشرون فامسكت بكتفه ودفعته قائلة : هل صرت أصم يا بارد

ولا ريب في ان القاري يعرف شيشرون الروماني الاحدب الذي تقدم ذكره في الفصول الاولى من هذه الرواية

فالتفت اليها شيشرون بعظمة وأنفة وقال . انك ايتها السيدة تعلمين انني لا أحب ان أراك أو التقي بك خارج بيتك . فأرجو ان تركيني الآن لانني هابط الى القرية لآخذ رسالة وردتني من اوروشليم مع أحد مكاري القرية

فدمعت عينا مريم اذ لم يفتها سبب فرار الشاب منها حين سمعها تذكر اسم
 شيشرون وفرار شيشرون حين سمعها تكلم شاباً في الحقل . فوقفت في مكانها
 جامدة كالصنم لا يتحرك منها عضو غير عينيها وقلبها . ثم تناولت منديلاً من
 جيبها ومسحت به دمعها

الفصل التاسع

﴿ ضيافة ﴾

ثم عادت مريم الى حيث كانت جالسة على العشب وأطرقت تفكر
 وتنكت الارض باصبعها . وكان تحت نظرها على الارض الازهار الصفراء
 والبيضاء والحمراء . وأشعة الشمس الذهبية حولها تملأ الفضاء . والهواء يهب عليلًا .
 والطبيعة الفلسطينية التي كانت يومئذ في أجمل زخرف خلافاً لما هي عليه اليوم (١)
 تنبسط امامها بجلالها وجلالها — ولكن مريم لم يكن يروقها شيء من كل ذلك
 بل كانت ترى حولها كل شيء أسود في نظرها . ذلك لان (ذلك السواد)
 كان في نفسها . مصداقاً لقول الفلاسفة المشهور (الجمال في عين الراي)

لقد صرفت هذه التعيسة ليلة ونهاراً في البطر والحلاعة والمسرات . لقد
 جارت على جسدها ونفسها بكل انواع الجور وهي تصيح بنفس ثائرة جنونية
 (يا حياتي يا قصيرة امتلئي بلا فراغ) (راجع ذلك الغناء في الفصل الثاني)
 ومع ذلك لما خرجت من ذلك الوسط اللعين الذي تغضب الارض لانها تحته
 والسماء لانها فوقه وان كانت بعيدة عنه — اخذت تفكر وتحلم . ولم تجد في
 نفسها من تلك الليلة وذلك النهار غير أثر الاشمئزاز والالء . وحين رأت

يوسف يفر منها فرار السليم من الاجرب وشيشرون صديقها الذي لم تتدنس له يد في يدها يفعل فعله لانه رآها واقفة تحادث شاباً في البرية — ثارت كبرياؤها وتحطمت نفسها لهذه الالهانة لانها كانت تستحقها . فقطر ألمها دمعاً من عينيها كما تقدم

وبينا هي مبهوطة تتأمل وتتألم واذا طرق مسمعها صوت كوقع حوافر الخيل . فالتفتت فأبصرت ثلاثة فرسان قد صاروا على مقربة منها . وكان الفرسان قد قبضوا اعنة خيلهم حين وصولهم الى مريم وساروا الهويناء وهم شاخصون اليها يتحادثون همساً . ثم انفرد احدهم وتقدم منها بعد ان ضحك لكلمة القاها الى رفيقيه وقال . عفواً ايها السيدة اننا غرباء ونطلب مكاناً للمبيت أليس في القرية فندق

وكان الدمع لا يزال يجول في عيني مريم . ولكنها لما سمعت سؤال الفارس ورأت برق عينيه وضحكه مع ضحك رفيقيه وراء شربت عيناها ما كان فيهما من الدمع ففاض دمعها الى حيث فاض وحأت فيهما القوة والوقاحة الخبيثة محلّ التأمل والضعف والانكسار . فاجابت بلهجة المرأة التي اعتادت مصارعة الرجال وعودت نفسها الاستعلاء عليهم والا داسوها تحت اقدامهم — من يطلب فندقاً ايها الفارس الجميل لا يطلبه على اكّة بعيدة عن القرية بل في القرية نفسها

فقال الفارس . ولكن خير الفندق ما كان على الآكام . بعيداً عن ضوضاء الانام . كالمنزل الذي امامنا هناك

ف قالت مريم . ليس هذا المنزل بفندق ايها الفارس ولكنه منزل امرأة فقيرة حقيرة تعيش فيه مع قرية لها . وأهل القرية يزعمون ان الشياطين تسكنه اما أنا فلم أر فيه شياطين ولكني رأيت فيه خنازير

فقال الفارس وكان رفيقاه قد تبعاه ووقفنا بجانبه ينظران بعيون متقدمة الى تلك المرأة الغضة التي كانت كأنها برج فضة . — وهل هما تقيان وحدهما وتقبلان الضيافة باجرة او بغير اجرة

فقالت مريم لا أعلم فلکم ان تسألوهما عن ذلك . ثم أطرقت تنبكت الارض بأصبعها

وكانّ الفرسان الثلاثة قد (سَمَرُوا) هناك في الارض امام مريم (تسبيرا) لا يقدرّون معه على التحرك من مكانهم ومفارقة هذه المرأة . ولذلك اقاموا برهة يتشاورون بلغة اجنبية عرفت مريم انها رومانية . فكان مثلهم في تلك الوقفة مثل ثلاثة من كلاب الصيد ظفرت بأرب سمين في البرية متحصّنين في وكره فوقفت امامه تحرك اذناها وتغرغر لهاها مفكرة في طريق صيده . ولم يكن واأسفاه لمريم خوف الارنب وذعره لدى هؤلاء الكلاب الثلاثة بل كان لها ألم طائر ذي قلب مريض وجنح مبيض ويطلب منه ان يرقص من الفرج لا من الالم

بعض النساء يقلن في بعض الاحيان سرّا أوجهرّا . (ما أقبح الرجال وأكرههم وأغلظ قلوبهم وأحط نفوسهم . فمنظرهم ثقيل . وذوقهم عليل . وكل ما لهم فظ بليد . واثرتهم وغطرستهم تبلغ بهم عندنا الى درجة من الاشمئزاز ما عليها من مزيد) ايتها المرأة لا تقولي هذا القول في الرجل مهما رأيت فيه مما يجعله قريبا منه ومستأهلا له . فان الرجل الذي (يحترم) المرأة أي الذي يرضى (حرمها السامية) التي هي اثن ما عندها ويعف في قلبه وعينه عنها لاجدر باحترامها وحسن ميلها وصفحها معها كان فظّا ثقيلا غليظا من اولئك الكلاب ذوات المنظر الظريف والذوق اللطيف واللباس الانيق والاسلوب الرقيق والشعر الصقيل الجميل الذين يحومون حول المرأة في المجتمعات والحلوات لصيدها

بشراك ظواهرهم هذه وجعلها بعد صيدها لعنة لاهلها واضحوكة والعوبة لهم يتساون بالهز بها والضحك منها في خلواتهم .. أيتها المرأة لك ان تغتفري للرجل كل ذنب وتحملي منه كل اساءة . اما اصطياده امرأة ضعيفة من منزلها بين اهلها واولادها وهي بلا سلاح بازاء سلاح ذلك الوحش القوي فهو ذنب لا تطهره الا لعنة الله ونار الجحيم : هو ذنب يوجب عليك ان تري كل رجل لا يعجبك مما كان فاتراً غليظاً — شخصاً محبوباً اذا كان يعف بل ملاكاً بالقياس على هذا الشيطان الرجيم

وبعد ان تشاور الفرسان الثلاثة التفت الفارس الاول الى مريم وقال — ضاحكاً : نحن غرباء ايتها السيدة ولا فندق هنا فهل تأذنين لنا ان ننزل ونستريح على هذا العشب

ف نظرت مريم في عينيه بوقاحة كنظر رجل لا كنظر امرأة وقالت . الارض لله لا لي فلکم ان تنزلوا حيثما تشاءون

فترجل الفرسان الثلاثة وجلسوا على بعد اربعة امتار من مريم . وكان يظهر ان قائدهم هو الفارس الاول لانه كان اجرأهم وواقحهم . فلما جلس لم يتعذر عليه موضوع للكلام فالتفت الى رفيقيه وقال

— اسألکم حل لغزي . نحن الان في حضن الطبيعة الجميل . فوقنا السماء وزرقتها الصافية . وتحتنا الارض وازهارها الزاهية . وحولنا الشمس ونورها العسجدي وانفاسها الدافئة . فما هو أجمل ما حولنا ؟

فقال كل من رفيقيه قوله وهو يضحك . وبعد ان فرغا من الكلام قال الفارس الاول

— كل ما قلتموه جميل . فالازهار والوانها المختلفة الخارجة من تراب كأن في الارض صباً غاً يصبغها . والنبات الاخضر المتحول عن تراب أسود . والهواء

البارد الذي لا نعلم من أين يهب • ونور الشمس الذي يشرح القلب • والطيور التي تتداعب هناك على الأشجار تداعب الاطفال الصغار • والراعي الذي يرعى مواشيه وينفخ لها بالزمار • والسماء التي فوقنا ولا نعلم من اين تبتدىء ولا أين تنتهي في هذا الكون المملوء بالاسرار — كلها جميلة كما قلتم • ولكن هناك ما هو أجمل منها • فان لا شيء منها يشبه جماله جمال الحسناء ذات السوار • كلها جامدة باردة ساكنة سكون الموت فليس لها قلب رقيق يخفق ولا عين ساحرة تحديق ولا نَفَس حار • النَّفَس ؟ سبحان جويتير بل ديانا لهذا (النَفَس) الذي خلقاه وجعلاه رسول النَّفَس الى النَّفَس من قلبين اشعلت فيهما النار • فالحسنة بديعة بدائع الكون ومستجمع الفنون ومنتهى ما قدر عليه في خاق الكمال والجمال ذلك الخالق الجبار • وفيها خلاصة الكائنات كلها • فقرة الاسد في نظرها • وسواد الليل في شعرها • وبياض الفجر في جبينها • وحمرة الورد ولون الزهر في خدها • وبرق النور في عينها • ولين الفصن في قوامها • ودهاء الثعلب في قلبها • ورقة السحاب وقوة صاعقته في لسانها • وخفة الطيور في رشاقة حركاتها • وفوق ذلك كله روح خفيفة بشوشة متسلطة على هذه النفائس تبث فيها الحركة والحياة وتديرها حيث تشاء (وَنَفَس حار) يذيب كل شيء يعترض سبيلها ويُنفذ ارادتها

وكانت مريم في اثناء هذا الوصف الشعري تنكت الارض باصبعها ولكنها كانت مصغية الى ذلك الثقيل تسمع كلامه • ونظرت الى نفسها بعد هذا الوصف فراقها ذلك الاغراق والغلو اذ لا يلذ النساء شيء مثله • ولكنها لم تجد في نفسها لنفسها اكليل ذلك البهاء والسناء الذي كلل المرأة به ذلك الفارس • فقالت في نفسها • ما أشد جنون الرجال الذين تدفعهم تصوراتهم الى انزال المرأة هذه المنزلة • فان شاباً جدي الاخلاق مستقيم السيرة والسريرة نشيطاً

في عمله كالنحلة في قنبرها يحمل على ظهره عبء عائلته ويسير في طريق الحياة في خط مستقيم دون ان يبالي بتعب او صعوبة — هو أجل في حياته واكمل وافضل من امرأة ييضا وحرأ تعرض كالصور في المنازل

وكانت مريم لا تجهل ان ذلك الثقل لا يقصد في كلامه هذا مجرد الوصف الشعري بل قصد به جرّ الحديث معها الى ما ينبغي جرّه اليه . ولذلك لم يفرغ من كلامه حتى التفت اليها وقال

أما أصبت ايتها السيدة في قولي انكن زينة الارض ومستجمع بدائعها ونفائسها فرفعت مريم رأسها وقالت . كنت مشغلة بالتأمل في دودة تحفر لنفسها في التراب لتغوص فيه فلم اسمع كلامك

وبعد مرور ساعة كان هؤلاء الفرسان الثلاثة يتناولون الطعام ويتعاطون المدام مع مريم في منزلها

الفصل العاشر

﴿ متناقضان ﴾

وفي صباح اليوم التالي وصل شيشرون الاحدب الى منزل مريم ليمحو أثر تخاشنه أمس معها . فرأى من بعيد ثلاثة أفراس مربوطة بجانب المنزل . فقال في نفسه (مسكنة هذه المرأة التعيسة) ثم حاد عن الطريق وأوغل في اكمة وأراها وهو مطرق يفكر بنفس متألة

فما كاد شيشرون يبلغ سفح الاكمة حتى رأى تحت شجرة فيها رجلاً مستلقياً على ظهره وذراعه معقودتان تحت رأسه وكتاب ملقى على صدره . فشى شيشرون نحوه ليراه لان هذه أول مرة رأى فيها في مجدل رجلاً يحمل كتاباً . اما الرجل

فلما سمع بجانبه وقع اقدام ترك ما كان فيه من التأمل ورفع رأسه . فوقعت عينه على ذلك الاحدب . فعرفه الاحدب لانه رآه أمس يفرّ من امام مريم وهي في الحقل حين مروره بها . فثارت نفس شيشرون لمنظر هذا الرجل لظنه انه أساء أمس الى مريم او قصدها بسوء . فرام الانصراف عنه باحتقار ولكن نفسه الرومانية منعتة من ذلك وأوجبت عليه الانتقام من ذلك الرجل وقد علم القارى ان ذلك الرجل كان يوسف الذي وقع له ما وقع مع مريم في اليومين الماضيين .

فدنا منه شيشرون بانفته الرومانية وقد رفع رأسه فوق حذبتة رفعا مضحكا . ولما صار عنده جلس وقال . قد حلت محلي ايها الشاب فان هذه الشجرة شجرتي وقد اعتدت المطالعة تحتها

فاستوى يوسف جالسا وقال وهو يتأمل في جسم شيشرون المضحك : اظنها تكفيني وتكفيك . تفضل واجلس

فلم يجاب شيشرون وقال . أرى بجانبك كتابا وهذا أمر مدهش منك . اذ كيف يمكن الجمع بين (الكتاب والكعاب) (١)

فتوردت وجنتا يوسف وأخذ كلح البصر يضرب أخماسا باسداس . ففرّ في نفسه ان مريم أطلعت هذا الاحدب على ما وقع له معها او انه هو نفسه رآه أمس واول أمس يجول حول المنزل او ابصره في الحقل بجانبها . ولكنه تجدد في كل حال وأجاب متبكّا . من السهل الجمع بين الكتاب والكعاب اذا كان الكتاب قصة لان النساء القصص القصص

فعبس شيشرون وقال . تعني بكلامك هذا انك تعاشر هذه المرأة ولا تحشى فعبس يوسف وقال . من أين لك ان تناقشتي الحساب يا هذا في

(١) الكعاب من النساء التي تهديها أي ظهر وأشرف

شؤوفي الخصوصية . ولماذا تنظر القذى الذي في عين غيرك ولا تنظر الخشبة التي في عينك . أما انت الذي نادتك أمس في ذلك الحقل وراء هذه الائمة فاستشاط شيشرون غضباً وصاح يالك من لثيم دّاس

فاتصب يوسف بكبرياء وعظمة وقد سكت بضع ثوانٍ ثم نطق فقال .
لست اقابل اهانتك بالاهانة ايها الروماني المهذب . فحسبك انك اسأت الى من لم يسيء اليك ولا الى أحد غيرك

ثم تناول يوسف كتابة وهمّ بالانصراف
فتعلق به شيشرون اما لان غضبه سكن لدى هدوء يوسف وتأدبه واما لانه كان يرى انه لم يستوفِ انتقامه بعد . فامسك بثوبه وقال . لا تذهب فاني اريد اتمام هذا الحديث معك

ولكن شيشرون لم يأتِ على هذا الكلام حتى صاح صوت من اكمة الى يمينه : ما هذا يا شيشرون . هل أصبحت شرساً الى هذا الحد .

فالتفت شيشرون ويوسف الى جهة الصوت فابصرا مريم واقفة تضحك ويجانبها الفارس الروماني الاول الذي تقدم ذكره في الفصل السابق . وكان الفارس منبسط الاسرة باسم الثغريهمس في اذن مريم ومريم تبتمس وتنظر في جهة ذينك الشابين الحقيرين . اما شيشرون فمد ابصر مريم والفارس في هذه الحالة ارتحنت عزائمهما واضطربت نفسه مع ما فيها من القوة الرومانية . وسبب ارتحاء عزائم رؤيته ان هذه المرأة لا تستحق الحماسة التي كان يدافع عنها بها . واما يوسف فقد انخلع قلبه وغار دمه وكل العرق جبينه وكاد يهوي الى الارض . فاجذب ثوبه من يد شيشرون وقال دعني فاني لا اقيم في هذا المكان

فدنا منه حينئذٍ شيشرون وقال بلطف مخالف لشراسته فيما تقدم . يا صاحب لا تلمي فقد غضبتُ وقلما اغضب في حياتي . هلم بنا نذهب من هنا وتحدث

بهدهوء واتفاق لانني لا أبرى هذه المرأة اهلاً لان يغضب رجل كريم من أجلها
فسكت يوسف ولم يجب وسار بجانب شيشرون يضرب اخماساً باسداس
ويتسائل عن سبب انقلاب هذا الاحدب الغريب بعد ظهور مريم

اما مريم فخذ ابصرتهما يسيران دون ان يلتفتا اليها قهقهت واستندت الى الفارس
رفيقها ثم سلكت معه طريقاً آخر وهي تهزل وتضحك وتقطف ازهار البرية
وتغرسها في شعرها وصدرها

وما خطا يوسف وشيشرون بضع خطى حتى قال شيشرون . هل انت
ابن هذه القرية يا صاحب . فقال يوسف كلا فاني ضيف فيها منذ اربعة ايام .
فقال وما هذا الكتاب الذي في يدك . قال هذا كتابنا المقدس (التوراة) . فقال
شيشرون قد اطلعت عليه وكثيراً ما لذتني المطالعة فيه . وهل قرأت فيه هذه
المرأة امامك

فالتفت اليه يوسف بنزق وقال أما زلت تعتقد انني عرفت هذه المرأة
قبل الآن

فقال شيشرون ولكنك كنت أمس معها في الحقل . فقال يوسف . اسمع
يا صاحب . لو سألتني بلطف في بدء كلامك لعلمت انه لا علاقة لي بهذه
المرأة ولا اريد ان يكون لي علاقة بها . فانت وشأنك معها كما تريد فان فكري
منصرف الى اله الجمال لا الى جمال ملوث بالاوحوال

فرفع شيشرون رأسه وقال انني اردء اليك نفس سوءك . هل تظن ان لي
علاقة بهذه المرأة . لقد اخطأت يا صاحب

ثم شرح كل واحد منهما قصته للآخر دون ان يذكر يوسف شيئاً عن ميله
الى مريم واقتفائه أثرها أول أمس . فتفاهما وزاد اتفاقهما على ما يظهر . وكانا
قد بلغا الى صخرة ناتئة فوق الوادي ومشرفة على الرمانة التي تداعبت فيها بلابل

مريم يوم التقائها بيوسف . فانحدرا نحو الرمانة

الفصل الحادي عشر

﴿ الخطبة في الوادي (١) ﴾

بين يوسف وشيرون * ثم بين شيرون ومريم
تجىء مكري وغضبي كلبوة

وكان الحر شديداً في ذلك النهار . والريح ساكنة . والطيور هادئة في
الاشجار لجأت اليها فراراً من الحر وتركت العشب والزهر . والغنم هجرت
مرعاها ولجأت الى الظل . وراعيا استلقى تحت ظل شجرة بعيدة وقدسكت مرماره
فجلس يوسف وشيرون في ظل الرمانة وهما ساكتان الا انه كان في نفس
كل واحد منهما (شيء) يتكلم . وهذا (الشيء) واحد وهو (مريم)

فلما جلس يوسف تحت الرمانة تنهد ونظر في اغصان الرمانة لانه تذكر
البلابل التي سمع هو ومريم تغريدها هناك . ومرّ في خاطره حينئذ الدمع الذي
راه يجري على وجنتها في ذلك الحين فقابل بينه وبين ضحكها وخفتها منذ عشر
دقائق فتألمت نفسه وحارت في أمر هذه المرأة التي هي لغز من الالغاز . فتهد وقال
— أليس من دواعي الـأسف والحزن العظيم ان الطبيعة والكائنات كلها
تستريح في هذه القرية في هذا الوقت : وكائن واحد يتعذب

فالتفت اليه شيرون وقد تجاهل مراده وقال — ماذا تعني يا صاحب

(١) نشرنا في روايتنا « اورشليم الجديدة » « الخطبة على الجبل » للراهب الشيخ
مخايل وفي هذه الرواية ننشر « الخطبة في الوادي » لشيرون الروماني . وكلتاهما على
طرفي نقبض عند من بغوص على المعاني ويحسن فهم الكلام

فقال يوسف . أنني أرى الآن السماء ثابتة . والارض جامدة . وما على الارض ساكن في راحة مطلقة . فالريح هادئة . والاشجار والنباتات مستقرة تستريح من الحركة . والطيور مطمئنة فيها تتمتع بنعمة الراحة الالهية . والمواشي تحتها نعيمة البال تجتر وتضمغ غذاءها بلذة حيوانية . وكل شيء حولنا ساكن مستريح مطمئن الا تلك المرأة الشقية

فسكت شيشرون بضع ثوان ولم يجب . ثم قال وهل انت متحقق يا صاحب انها كلها ساكنة مطمئنة مستريحة (راحة مطلقة) كما قلت

فقال يوسف وقد أشار الى ما حوله : أما ترى

فقال شيشرون

— يا صاحب قد سرّني انني لقيتك وعرفتك . فاني كنت في حاجة الى صديق مثلك في دار غربتي هذه . ولقد أسأت اليك الساعة ولكن قلبك الكريم الذي خبرته في هذا الزمن القصير يصفح عن اسأئي لا سيما وانك علمت ان سببها كان سوء التفاهم بيننا . ولا شك في انك تحترمني وتصفح بعد ان عرفت أصل هذا السبب . يا صاحب انني أراك فتى في نحو العشرين أو أكثر قليلاً . وانت كثير الاحلام قليل الكلام . ولم اجد في كلامك ما يدل على انك ذو صناعة . فهل انت مثلي

فأجاب يوسف في الجواب وعجب من هذا السؤال فقال . جاءت الآن نوبتي في ان أسألك ماذا تعني يا صاحب

فقال شيشرون اعني انني (مقطوع) الهيئة الاجتماعية . فهل انت (مقطوعها) مثلي فدهش يوسف وفتح عينيه وقال . كيف انت مقطوع الهيئة الاجتماعية وأية علاقة لهذا الكلام بالسؤال الذي التيته عليك فابتسم شيشرون ابتسامة لا يعرف معناها أحد غير الآلهة أو الشياطين وقال

- لا تخف يا صاحب . فلستُ جانيًا فأرأ من السجن او من المحكمة .
ولا اخا دينية منفيًا من وطنه . ولكني (مقطوع) من ارض وطني وانا قطعتُ
نفسي بنفسي . انظر يا صاحب انني لم احدث احداً في ما احدثك به الآن
غير مريم الشقية كما دعوتها . والذي دعاني الى محادثتك هذه الكتاب الذي
رأيت في يدك وما سمعته من ملاحظاتك الآن ومنذ اول التقائي بك . انني
روماني ولدتُ في رومه مهد الشرائع وعاصمة الدنيا وامّ الامم . فعشت فيها الى
سن العشرين راضياً هنيئاً . وفي الثانية والعشرين بدأتُ اضرب ضمن معيشتها
المضطربة . وفي الثلاثين شرعتُ في محاربتها . وفي الثانية والثلاثين تركتها
و(انقطعتُ) عنها غير آسف عليها .

فقال يوسف حقاً يا صاحب انني لم افهم مرادك بعد بقولك انك (مقطوع)
و(انقطعت) . فهل مرادك انك هجرت وطنك وان كل من يهجر وطنه انقطع عنه
فقال شيشرون انني ابسط لك مرادي بعبارة اوضح . ان (المقطوع) عن
قومه هو الذي انقطعت ما بين فكره (١) وافكار بني وطنه صلات المبادئ
التي كانت تجمعها من قبل . فيصبحون وهم يرون الحياة وسننها واغراضها وطرقها
مخالفة للسنن والاعراض والطرق التي يراها هو . واحياناً يكون الحق في جانب
ذلك الفرد والخطأ في جانبهم وذلك حين يكون الفرد نابغة من نوابع الارض .
وتارة يكون الحق في جانبهم والخطأ في جانبه وذلك حين يكون هذا الفرد من
ضعفاء العقول والادعاء في الارض . فانا (مقطوع) عنهم ولكن من أي فريق انا
قال شيشرون هذا الكلام وأطرق بانكسار كأنه علم انه تجاوز الحدود في

(١) لا اقول «نفسه» لان رنان يقول في كتابه في تاريخ بني اسرائيل ان
الرومانيين كانوا لا يفهمون التفريق بين النفس والجسد كما اصطلح عليه المسيحيون
في عصرهم

كلامه . ولكنه كان يرى انه يخاطب فتى قليل الخبرة فلم يهتم كثيراً لما بدر منه . اما يوسف فاجاب على حسب فهمه فقال

— أما أنا يا صاحب . فلست' (بمقطوع) ولكني (لا تابع ولا متبوع)
فالتفت اليه شيشرون بنزق لظنه انه يهزأ بكلامه وقال أتهزأ بالمصائب
يا صاحب ؟

فتوردت وجنتا يوسف الصفراوان وقال معاذ الله يا صاحب . انني اجد ولا
امزح . انني (لا تابع ولا متبوع) ولكنني ايضا لست' (بمقطوع) فانا مثلك
ضعيف فقير أرى رذائل قومي واغلاطهم وفسادهم ولا استطيع هدايتهم — فلا
انا أتبعهم ولا هم يتبعوني — . ولو كنت' في مكانك بين قومك لا تقطعت'
عنهم كما انقطعت' اذ لا صلة خالدة بينك وبينهم . اما انا فلا استطيع هذا
الانقطاع لان بيني وبينهم صلة خالدة مصنوعة من حديد تربط نفسينا بعضها
ببعض . فيها انا متصل وبدونها انا منقطع .

فقال شيشرون بعجب . وما هذه الصلة

فدَّ يوسف يده بنزق وحدة الى التوراة التي كانت بجانبه على الارض ورفعها
بوجه شيشرون وقال . هذه هي الصلة

فضحك شيشرون وقال . فهمت' مرادك . وكلامك هذا يردنا الى السؤال
الذي القيته عليّ بشأن مريم . وانا ما ألقيت' عليك سوالي وذكرتك' لك ما
ذكرت' الا لارجعك اليه

فاتم يوسف كلامه قائلاً . نعم هذه هي الصلة الباقية بيني وبين قومي .
في هذا الكتاب ماء الحياة فمن شرب منه لا يظأ ومن استند اليه لا يسقط .
فهو اولاً يعلمنا وجود (اله) قادر على كل شيء منه اتينا واليه نعود . وثانياً
يضع لنا سنن حياتنا الاجتماعية على اسس العدل والانصاف والحق ومحبة بعضنا

بعضاً وفعل الخير والرحمة والشفقة . وثالثاً ينبئنا بظهور (المسيح) فينا لاصلاح فسادنا واعادة صلاحنا وقوتنا الينا . فلو كان عندكم مثل هذا الكتاب الحق لرأيت ان الصلة بينك وبين قومك لا تنقطع بل تطلب به صلاحهم واصلاحهم وتوثيق الصلات بينك وبينهم

فابتسم شيشرون وسكت . وبعد بضع ثوانٍ قال . ان كلامك يا صاحب ككلام رجال ديننا . فهم يعتقدون ان كتبهم وعبادتهم جويتير وديانا وسائر آلهتهم حق كما يعتقدون ان كتبكم وعبادتكم آلهتكم حق . وليس غرضي ان احكم بين الفريقين فاهذا موضوعنا . فان موضوعنا سوالي الذي القيته عليك (هل انت مقطوع مثلي) فاني رأيت ملاحظتك بشأن (راحة الطبيعة والكائنات) راحة مطلقة حالة كون تلك المرأة الشقية تعذب وحدها — مما يدل على انك متألم من الهيئة الاجتماعية تألماً شديداً . ولما كنت متألماً منها مثلك سألتك هل انت (مقطوع) مثلي . فعلمت من جوابك الآن انك لست (بمقطوع) ولكنك (مخدوع) . ولا عتب عليك ولا لوم فانك لا تزال في سن الانخداع

والآن اجيبك على سوءالك بنفس السؤال الذي القيته عليك فيما تقدم . وهو . هل انت متحقق ان الطبيعة والكائنات التي ذكرتها هي مطمئنة مستريحة راحة مطلقة كما قلت .

لا تستغرب يا صاحب تعلقي بهذه الملاحظة التي صدرت عنك فان الجواب عنها أساس فلسفتي ومبادئ كلها . فكأنك بهذه الملاحظة تقلتني من افقي الصغير المحدود في بلادكم هذه الى افق الفلسفة المتسع المنبسط فوق الارض كلها يحيط بجهلتها الاربع لان نواميسه متسلطة على جميع ما فيها

قلت ان السماء ثابتة . والارض وما عليها من الكائنات هادئة ساكنة . وأهل هذه القرية كلهم مستريحون — الا مريم تعذب وحدها . فقتضي قولك هذا